مع الأتراك في فلسطين

بقلم: ألكسندر آرونسون

مع صور توضيحية

ترجمة: جمال عمار

----



1916

إلى أمي

التي عاشت وحاربت وماتت من أجل فلسطين متجددة

شكر

إلى محرري مجلة أتلانتك مونثلي، والناشرين والعديد من الأصدقاء الذين شجعوني، سأظل ممتنًا على الدوام

**المحتويات:**

المقدمة

1- زكرون- يعقوب

2- مجبر على الخدمة

3- البروباغاندا الألمانية

4- صنع الطريق والانطلاق

5- الأسلحة المخفية

6- حملة السويس

7- محاربة الجراد

8- لبنان

9- بارون فلسطين السارق

10- مغامرة متهورة

11- فرار

**الصور التوضيحية:**

جمال باشا

تصوير أندروود اند أندروود

مقبرة زكرون - يعقوب

صفد

تصوير أندروود اند أندروود

المؤلف على حصانه كوشبا

تصوير السيد يوليوس روزنوالد، من شيكاغو، في مارس 1911

خيام الجنود في السامرة

الناصرة من الشمال الشرقي

تصوير أندروود أند أندروود

بيت والد المؤلف، أفرايم فيشل آرونسون،

في زكرون - جاكوب

في مقهى محلي ، صفد

تصوير السيد يوليوس روزنوالد

بائع ليمون في دمشق

تصوير السيد يوليوس روزنوالد

موقع محطة السكة الحديد بين حيفا ودمشق

تصوير السيد يوليوس روزنوالد

الجمال تجلب الأشجار المقطوعة حديثًا، دمشق

تصوير السيد يوليوس روزنوالد

بلدة زحلة المسيحية في لبنان

تصوير أندروود أند أندروود

حيفا

تصوير أندروود أند أندروود

حيفا وخليج عكا. تطل على الشرق من جبل كرمل

تصوير أندروود أند أندروود

بازار الجافا في يوم من أيام السوق

تصوير أندروود أند أندروود

البحر العاصف يتكسر الصخور قبالة الجافا

تصوير أندروود أند أندروود

أخت المؤلف على حصانها تايار

تصوير السيد يوليوس روزنوالد، مارس 1914

بيروت، من سطح سفينة بخارية مغادرة

تصوير أندروود أند أندروود

المقدمة

بينما تنزف بلجيكا وتحلم، وتعاني بولندا وتنشد التحرير، وتنتظر صربيا الخلاص، ثمة بلد صغير تمزقت روحه إلى أشلاء، بلد صغير، بعيد جدًا، بعيد لدرجة أنه لا يمكن سماع تنهداته المحتدمة.

بلد التضحية الدائمة، البلد الذي رأي إبراهيم يبني المذبح استعدادًا لقتل ابنه الوحيد، البلد الذي رآه موسى من بعيد، تتمدد في جماله وسحره، أرض الميعاد الذي لن يتحقق أبدًا، البلد الذي أعطى العالم رموز الروح والجوهر: فلسطين.

لم يذهب أي مراسلين حربيين ولا صليب أحمر أو لجان إغاثة إلى فلسطين، لأنه لم يكن هناك قتال حقيقي هناك، مع ذلك، يعاني مئات الآلاف هناك أسوأ المعاناة، عذاب الروح.

أولئك الذين كرسوا حياتهم ليُظهروا للعالم أنَّ فلسطين يمكن أن تكون مرة أخرى دولة تفيض بالحليب والعسل، أولئك الذين حلموا بإحياء روح الأنبياء والمعلمين العظام، يُشنقون ويُضطهدون ويُنفون، تحطمت أحلامهم، ودُنِست أماكنهم المقدسة، وخُربَ عملهم. مقطوعون عن العالم، بلا خبز لتغذية الجسد الجائع، وأحذية الجند البرابرة الثقيلة تدوس على أرواحهم، يرفض حالمو فلسطين الاستسلام، يقاتلون البنادق والسيوف من أجل الروح، بأسلحة الروح.

لم يحن الوقت بعد لكتابة سجل هذه المعارك، ولا حتى محاولة تحقيق العدالة لأبطال فلسطين. هذا الكتاب هو مجرد قصة لبعض التجارب الشخصية من قبل شخص فعل أقل ما يمكن، وعانى أقل من الآلاف من رفاقه.

**ألكسندر آرونسون**

**مع الأتراك في فلسطين**

**الفصل الأول**

**زكرون-يعقوب**

**-----**

قبل خمسة وثلاثين عامًا، دفع الباعث الذي تم تنظيمه في ذلك الحين، والمسمى بالحركة الصهيونية، والديّ إلى مغادرة منزلهم في رومانيا والهجرة إلى فلسطين، حيث انضموا إلى عدد من الرواد اليهود الآخرين في تأسيس زكرون - يعقوب، قرية صغيرة تقع جنوب جبل الكرمل مباشرة، في تلك المنطقة الساحلية الخصبة القريبة من سهول أرمجيدون القديمة.

ولدتُ هنا، قضيتُ طفولتي في سلام وانسجام في هذا المجتمع الزراعي الصغير، بمنازله الحجرية البيضاء المتلاصقة تحميهم من العرب الأصليين الذين هددوا، في البداية، حياة المستعمرة الجديدة. كانت القرية أكثر شبهًا بسويسرا من قرى الشرق القذرة التقليدية المتسخة المبنية من الطين. كان هدف شعبنا في العودة إلى الأرض المقدسة، تعزيز اللغة اليهودية والظروف الاجتماعية للعهد القديم إلى أقصى حد ممكن، لم يكن هناك أي تراجع في هذه الحركة.



أدخلوا أول قدومهم، أساليب الزراعة المتقدمة، كما استفادوا من التجارب المناخية للبلدان الأخرى في تنمية الموارد الطبيعية الوفيرة للأرض. سرعان ما منح الأوكالبتوس، المستورد من أستراليا، الظل بأوراقه الباردة والصحية حيث لم تكن الأشجار قد نمت من قبل. مع مرور الوقت، أدخلت وتوسعت الزراعة الجافة (التي يعتبرها بعض الناس اكتشافًا حديثًا، لكنها في الواقع قديمة قدم العهد القديم) مع الأدوات الزراعية الأمريكية، وتم استيراد الماشية، ومورست تربية الدواجن على نطاق واسع بمساعدة الحاضنات، ما أثار اشمئزاز العرب، الذين ينظرون إلى هذا الاغتصاب لوظائف الدجاجة أنه ضد الطبيعة وخاطئ. استبدل شعبنا الممرات المحلية البائسة بالطرق الجيدة، يحدها سياج من أشجار السنط الشائكة التي تعطي في الموسم أزهارًا صفراء صغيرة ناعمة تنبعث منها رائحة أكثر حلاوة من العسل عندما تسطع عليها الشمس.

والأهم من كل ذلك، تم إنشاء حكومة قروية شيوعية يتمتع فيها كلا الجنسين بحقوق متساوية، بما في ذلك حق الاقتراع، قد يبدو هذا غريبًا للأشخاص الذين لديهم مفاهيم ملتبسة بأنَّ جميع نساء فلسطين محبوسات في الحريم.

علمت التجربة القصيرة مع المحاكم التركية والعدالة التركية شعبنا أنه يتعين عليه إنشاء نظام قانوني خاص، لذلك تم تعيين قاضيين متعاونين، أحدهما لتفسير الشريعة الموسوية، والآخر لمزجها مع الفقه الحديث. تمت تسوية جميع الخلافات اليهودية من قبل هذه المحكمة. يمكن الحكم على فعاليتها من خلال حقيقة أنَّ العرب الذين سئموا الفساد التركي - المكشوف والوقح كما هو الحال في أي مكان في العالم - بدأوا بأعداد متزايدة في تقديم الصعوبات التي تواجههم إلى محكمتنا. اليهود شعب يحترم القانون، وتميل الحياة في تلك المستعمرات الفلسطينية إلى إبراز الصفات الودية لعِرقنا. ومن المثير للاهتمام ملاحظة أنه خلال أكثر من ثلاثين عامًا لم يتم الإبلاغ عن قضية جنائية يهودية واحدة في 45 قرية.

كانت زكرون - يعقوب بلدة صغيرة بها مائة وثلاثون "حريقًا" - كما نسميها - في عام 1910. وبناءً على نصيحة أخي الأكبر، الذي كان رئيسًا لمركز التجربة اليهودية في أثليت، مدينة قديمة للصليبيين، غادرت إلى أمريكا للدخول في خدمة الولايات المتحدة في وزارة الزراعة. بعد أيام قليلة من وصولي إلى هذا البلد، أخذت أوراق التجنيس الأولى الخاصة بي وتوجهت إلى واشنطن، حيث أصبحت جزءًا من تلك الخدمة الحكومية العظيمة التي لا يعلم الأمريكيون كثيرًا عن نشاطها الإيجابي. بقيت هناك حتى يونيو 1913، عندما عدت إلى فلسطين بهدف التقاط مقاطع فيديو ومناظر طبيعية، بنية استخدامها في جولة دعوية لنشر الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة.

تمكنتُ خلال سنوات إقامتي في أمريكا، من تقدير جمال وإلهام الحياة التي عاشها شعبي في الأرض المقدسة والحكم على قيمتها الصحيحة. ورأيتُ بشكل أفضل الحاجة إلى تنظيم مجتمعاتنا، وعقدتُ العزم على بناء اتحاد أخوي للشباب اليهود في جميع أنحاء البلاد.

بعد شهرين من عودتي من أمريكا، وقع حدثٌ زاد دافعي لهذه المشاريع. بينما طبيب قريتنا، وهو رجل عجوز كرس حياته كلها لخدمة وشفاء شعب فلسطين دون تمييز عرقي أو ديني، كان يقود سيارته في إحدى الأمسيات عائدًا لمنزله من مستوطنة مجاورة، وبرفقته فتاة في السادسة عشرة من عمرها، اعتدى عليهما أربعة مسلحين عرب في مكان مهجور، ضربوا الرجل العجوز حتى فقد الوعي وهو يحاول عبثًا الدفاع عن الفتاة من المصير الرهيب الذي ينتظرها.

ومع مجيء الليل، روعنا غياب الطبيب. تحرك الشبان بحثًا عنه، فاكتشفنا أخيرًا ما حدث. وهناك في ضوء القمر الهادئ لتلك الليلة الشرقية، بينما نتأمل المأساة التي بين أيدينا، جعلتُ رفاقي يقسمون بشرف أخواتهم أن ينظموا أنفسهم في مجتمع قوي للدفاع عن حياة وشرف أهل قريتنا وشعبنا.

ربما تكون هذه التفاصيل مفيدة من أجل فهم أفضل للاضطرابات التي تسارعت واشتدت عندما اندلع جنون الحرب بين دول أوروبا في أغسطس 1914. شعرنا بالأثر على الفور حتى في ركننا النائي من الأرض. بعد فترة وجيزة من الغزو الألماني لبلجيكا، بدأت تعبئة الجيش التركي واستدعاء جميع مواطني الإمبراطورية ممن تتراوح أعمارهم بين تسعة عشر وخمسة وأربعين عامًا. نظرًا لأنَّ دستور تركيا الحديث لعام 1909 ينص على أنَّ جميع المسيحيين واليهود متساوون في الخضوع للخدمة العسكرية، علم شبابنا أنه سيتم استدعاؤهم أيضًا لتقديم التضحية المشتركة. لم يكن أغلبهم مستعدين لدعم الحكومة التركية، لكن بينما فرض الدستور عليهم عبء العسكرية، فقد جلب معه تعويضات في ما يتعلق بحرية الدين والمساواة في الحقوق، كما لا يمكننا أن ننسى أنه منذ ستمائة عام، فتحت تركيا أبوابها على مصراعيها لليهود الذين فروا من محاكم التفتيش الإسبانية وما يماثلها في الدول المتحضرة.

لم نحلم بأن تفعل تركيا أي شيء سوى أن تظل محايدة. إن كان لدينا أي فكرة عن المنعطف الذي ستتخذه الأمور في نهاية المطاف، لوجهنا تحية مختلفة للمختار، أو العمدة، الذي جاء إلى قريتنا مع قائمة بالرجال الذين سيتم استدعاؤهم للخدمة. كان موقفي مثيرًا للفضول، كنت أنوي استكمال عملية الحصول على الجنسية الأمريكية، والتي كنت قد بدأتها من خلال إخراج "الأوراق الأولية" لكن في نظر القانون، لا أزال ضمن الرعية التركية، وغير مستحق للحماية الأمريكية، هذا ما أشار إليه باستخفاف القنصل الأمريكي في حيفا، والذي صادف أنه ألماني، لذلك لم يكن هناك طريق آخر سوى تسليم نفسي للحكومة التركية.

**الفصل الثاني**

**الإجبار على الخدمة**

---

لم يكن هناك شك في أهليتي للخدمة، كنت شابًا قويًا وبصحة جيدة.وحتى لو لم أكن كذلك لما تغير شيء في الأمر، فقد كان فحص الأتراك البدني للمجندين مهزلة. لدى ضباط التجنيد نظرية خاصة بهم مفادها أنه لا يوجد شخص غير لائق للجيش، وهي النظرية التي عززتها وسائل العرب البارعة لتجنب التجنيد الإجباري. بالنسبة لهؤلاء الأشخاص المتوحشين، فإنَّ الانضباط المطول للتدريب العسكري هو مجرد فترة انتقالية، حيث يشرعون قبل أسابيع من موعد التجنيد في تناول أعشاب قوية وطبيعية سريعة المفعول تعمل على تغذية القروح، حتى يصبحوا في حالة يرثى لها. بل يذهب بعضهم إلى حد قطع إصبع أو إصبعين. مع ذلك، تعلم الضباط أن يروا ما وراء هذه الحيل الصغيرة. القليل فقط من العرب نجحوا في التملص من شبكة الصيد تلك. شاهدتُ العشرات من العرب يتم إحضارهم إلى مكتب التجنيد على ظهور الجمال أو الخيول، كانوا ضعفاء للغاية، بينما استقبلهم المعسكر بضرب مبرح. يتقاسم المرضى والمخادعون المصير نفسه. وهكذا غالبًا ما يموت بعض المجندين الجدد بعد اليوم الأول من حياتهم في الحامية.

قدمتُ نفسي مع عشرين من رفاقي لمركز التجنيد في عكا (القديس جان داكري في التاريخ القديم). علمنا أنه بمجرد تسجيل اسمائنا، يجب أن يُسمح لنا بالعودة إلى ديارنا لتزويد أنفسنا بالمال والملابس المناسبة والطعام، بالإضافة إلى توديع عائلاتنا. غير أنّا ذُهلنا حين اُقتدنا إلى الهانْ، أو النزل، وحُبسنا في الفناء الكبير مع مئات العرب القذرين. مرت الساعات وحل الظلام، و اضطررنا في النهاية إلى التمدد على الأرض والاستفادة القصوى من الوضع السيئ. كانت ليلة مرعبة. قليلون منا بالكاد تمكنوا من النوم عندما لاح ضابط في الفجر وأمرنا بالخروج من الهان. من إجمالي عددنا، تم انتقاء حوالي ثلاثمائة (بما في ذلك أربعة شبان من قريتنا وأنا) وطلب منهم الاستعداد للبدء على الفور في صفد، وهي بلدة في تلال شمال الجليل بالقرب من بحر طبرية، حيث من المقرر أن تكون حاميتنا هناك. لم يلتفت أحد إلى طلبنا السماح بالعودة إلى منازلنا في زيارة أخيرة. في الصباح نفسه كنا في طريقنا إلى صفد. جماعة متنوعة وساخطة.



كانت مسيرة أربعة أيام. أربعة أيام من الحر والغبار والمعاناة الجسدية. عذبتنا شمس سبتمبر بلا رحمة ونحن نسير على طول درب السكان الأصليين البائس، المليء بالأخاديد والأحجار المتناثرة. لم يكن الأمر ليكون سيئًا للغاية لو انتعلنا أو ارتدينا ملابس مناسبة، سرعان ما وجدنا أنفسنا نحسد العرب رثي الثياب وهم يمشون حفاة القدمين، غير مكترثين بأحجار الصوان الخشنة. (الأحذية بالنسبة للعرب هي أغراض للاستخدام الداخلي الاحتفالي، ويخلعونها عند القيام بأي مشي جاد، ويرفعونها على الكتف، واثقين في باطن أقدامهم).

زاد مشاكلنا أنَّ الضباط الأتراك لم يخصصوا لنا مندوب مؤن. كان يجب علينا شراء الطعام من على جانب الطريق من أموالنا الخاصة، والتي كانت شحيحة. العرب كانوا في مأزق رهيب، معظمهم مفلسون، ومع بداية آلام الجوع، بدأوا في نهب المزارع الصغيرة على جانب الطريق يمنة ويسرة. كانت بداياتهم خجولة - دواجن وخضروات - لكنهم تقدموا نحو طرائد أكبر، دون مساءلة من قبل الضباط. تم اقتحام المنازل وإهانة النساء، مرارًا وتكرارًا رأيت حصانًا ضالًا، يرعى على جانب الطريق استولى عليه حشد من العرب المبتسمين، الذين تكدسوا على ظهر الحيوان المسكين حتى كاد أن يسحق على الأرض، يعتلونه بانتصار، بينما يوقف رفاقهم مالكه الباكي. كانت نتيجة هذا النوع من "الاستيلاء" أنَّ مجموعتنا من المجندين تعقبها حشد متزايد من المزارعين، يتوسلون ويهددون، يحاولون بأية وسيلة استعادة البضائع المسروقة. لم يحظوا سوى بترضياتٍ ضئيلة، مع أنَّ بعضهم تعقبنا صفد.

بلدة حاميتنا ليست مكانًا جذابًا، ولا تتمتع حتى بسمعة جيدة. كان لدى اللورد كتشنر نفسه سبب وجيه لتذكرها، بصفته ملازمًا شابًا يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، في الفيلق الهندسي الملكي، كاد أن يقتل هناك على يد مجموعة من العرب المتعصبين أثناء تفحصه صندوق استكشاف فلسطين. نجا كتشنر منها بأعجوبة (قتل أحد زملائه الضباط برصاصة بالقرب منه)، لكنه تقدم بهدوء وأكمل خرائطه الفخمة الهامة التي لم يضاهها شيء منذ ذلك الحين، ويستخدمها الآن الجيشان التركي والألماني. مع ذلك، ورغم أنَّ صفد تجمع بين معظم الخصائص الكريهة للمدن الفلسطينية الأصلية، فقد سعدنا بمشاهدتها، بعدما أهلكتنا المسيرة. مُنحنا مسجدًا قديًمًا مهجورًا للثكنات. هناك على الأرضية الحجرية العارية، في اختلاط محكم، متعبون جدًا من أن نقوم برد فعل تجاه القذارة والحشرات، أمضينا ليلتنا الأولى كجنود للسلطان، بينما كان ضوء القمر اللبنيّ يتدفق من خلال الفتاح، والخفافيش تحلق حول القبو فوق شخير أجساد المجندين.

في اليوم التالي أيقظنا الجند عند الخامسة صباحا. كانت أعماق البئر السوداء في وسط فناء المسجد توفر مياهًا مشكوكًا فيها للاستحمام والاغتسال والشرب. ثم جاءت وجبة الإفطار، أول وجبة حكومية، تتكون ببساطة من الأرز المسلوق الذي يُغرف في أحواض غسل من الصفيح تحمل حصصًا تكفي عشرة رجال. وبطريقة شرقية حقيقية جلسنا القرفصاء حول الحوض وحفرنا في الأرز بأصابعنا. كنتُ مستاءً في البداية من هذا النوع من عادات المائدة، ولبعض الوقت كنتُ أتناول الطعام مثبتًا عيني على حصتي، لتجنب رؤية العرب الذين يملأون راحة أيديهم بالأرز، يكورونها ويحشرونها في أفواههم، فتصنع البلعة نتوءًا كبيرًا على حناجرهم الهزيلة أثناء نزولها على مضض.

في ذلك الصباح نفسه تم تخصيص زينا الرسمي. عدل الزي التركي تحت الإشراف الألماني غير المباشر خلال السنوات الخمس الماضية. هو من الكاكي - كاكي أكثر خضرة من الخاص بالجيش البريطاني، ومن القطع الأوروبية التقليدية. تم توفير لفافات ساق لولبية وأحذية بوت جيدة. الملمح الغريب الوحيد هو غطاء الرأس، وهو مزيج طريف وغير مألوف من العمامة والخوذة الألمانية، ابتكره أنور باشا ليجمع بين الدين والتطبيق العملي، وسميت أنويريّه تكريمًا له (سجل أنور براءة اختراعه، ويُشاع أنه حصل على ثروة مريحة من بيعه). إنه زي ممتاز بشكل عام، لكن ما أثار اشمئزازنا، كومة الملابس بلونها الزيتوني الباهت التي وقفنا أمامها نختار، لم يكن هناك زي واحد جديد. جميعها بالٍ، ورثّ، وقذر. كما أنّ مجرد التفكير في ارتداء ملابس بعض الفيلق العربي المجهول، والذي ربما مات بسبب الكوليرا في مكة أو اليمن، جعلني أرتجف. بعد بعض التردد، توجهت أنا وأصدقائي أخيرًا إلى أحد الضباط وعرضنا شراء أزياء جديدة بالمال الذي ننتظره يوميًا من عائلاتنا. وافق الضابط حيث وجد فيها فرصة تحقيق ربح.

كانت الأيام والأسابيع التالية متصلة الحركة من الصباح حتى المساء، تدريبات والمزيد من التدريبات. تم تقسيمنا إلى مجموعات مكونة من خمسين شخصًا، كل منها تحت مسئولية ضابط صف شاب من المدرسة العسكرية في القسطنطينية أو دمشق، أو من بعض العرب الذين قضوا عدة سنوات في الخدمة. واجه هؤلاء المدربون وقتًا عصيبًا، كان النظام العسكري الألماني الذي أدخل مؤخرًا معقدًا أكثر بالنسبة إليهم.

استمروا في الخلط بين طرق التدريب القديمة والجديدة ما أدى إلى تعذر إصدار الأوامر. أسابيع كاملة انتهت في تعليم العرب أسماء أجزاء مختلفة من البندقية. ذهبت أسابيع أخرى في تعليمهم كيفية تنظيفها، رغم أنه يجب القول إنهم يصبحون رماة مهرة بمجرد إتقان هذه الجوانب التقنية. كانت كفاءتهم لتكون أكبر بكثير إن كان هناك المزيد من التصويب على الهدف. شعرنا منذ البداية أنَّ هناك ندرة في الذخيرة، هذا النقص في خبراء التدريب، حاولوا تعويضه بالصرامة الشديدة. لم يكن السوط المصنوع من الجلد الناعم المرن اللاذع، والذي نادرًا ما يترك يد الضابط التركي، خاملاً أبدًا. ولم يكن هذا مفاجئًا، فالعربيّ رجل ماكر لا يحترم إلا القوة الوحشية. يمارسها بنفسه على كل ضحية محتملة، ويتوقع المعاملة نفسها من رؤسائه.

بقدر ما كنا أنا ورفاقي قلقين، يجب أن أعترف بأننا عُوملنا معاملة طيبة. كنا نعرف معظم التدريبات بسبب تدريب الجمباز الذي كنا نمارسه منذ الصغر، وأدرك الضباط أننا متعلمون وأننا من عائلات محترمة. ينطبق الشيء نفسه أيضًا على المسيحيين الأصليين، الذين يستطيع معظمهم القراءة والكتابة وهم من طبقة أفضل من المُحمدييّن في تلك البلاد. تغير الموقف تجاه اليهود والمسيحيين بشكل جذري عندما شرعت تركيا في تقديم الدعم التام للقوى الجرمانية. ولكن سأتحدث عن هذا لاحقًا.

عشنا حياة صعبة أثناء التدريب في صفد. يجدنا المساء منهكين دون رغبة في أي شيء سوى الراحة. عندما يتلاشى الضوء الهائل لغروب الشمس الشرقية، كنا نجتمع في مجموعات صغيرة في فناء مسجدنا -تقابل مئذنته الشاهقة باللون الأسود السماء الفيروزية - ونتحدث بشكل متقطع عن الأحداث الصغيرة في ذلك اليوم، بينما يدمدم العرب حولنا. من حين لآخر، يندفع أحدهم في أغنية حب قبلية متهدجة وحارة. حدث أنني كنت معروفاً إلى حد ما بين هؤلاء السكان الأصليين من خلال حصاني **كوخبا**، من سلالة مانيغي- سبيلي نقية، اشتريتُه من بعض بدو عنزي الذين نزلوا في مكان قريب من حلب. كان حيوانًا سريعًا وذكيًا، وفاز بالكثير من السباقات، وفي أرض يكون فيها الحصان أكثر قيمة من الزوجة، فإنَّ ملكيته تلقي بريقًا شديدًا على المرء.



يأتي العرب مساءً للدردشة. نظرًا لأنهم نادرًا ما يتحدثون عن أطفالهم، ولا يتحدثون عن نسائهم أبدًا، اقتصر الحديث على العموميات، حول المحاصيل والطقس، أو سرد حكايات لا تنتهي عن أبو زيد، البطل الشهير لبني هلال، أو عنتر العظيم. يتناقشون أيضًا في السياسة، والتي لديهم أفكار مذهلة عنها. لا يزال نابليون بونابرت والملكة فيكتوريا من الشخصيات الحية بالنسبة لهم. لكن (بشكل كبير كفاية) اعتبروا القيصر ملك جميع ملوك العالم، باستثناء السلطان الذي اعترفوا بمساواته به. نادرًا ما يمر المساء بدون رقص. بحلول الظلام، يجتمع العرب في دائرة كبيرة حول أحد رفاقهم، يجلس على الأرض مع مزمار من الخيزران، وعلى موسيقى ثانوية غريبة يبدأون في التأرجح والتحرك بينما يغني شاعرٌ مختارٌ من بينهم مقطعًا مرتجلًا ملتزمًا بإيقاع الناي. عادة كانت الموضوعات عائلية.

ينوح المغني: "غدًا سنأكل الأرز واللحوم".

يُغنّي "تحيا آمالي"، فيستجيب الآخرون بملء الصوت. كانت الجوقة فعالة للغاية. في بعض الأحيان ينغمس المغني في الغناء بأصوات حادة، فيرد عليه الآخرون بهدير من الضحكات.

تستمر هذه الرقصات لساعات، ومع تقدمها، تثار مشاعر الرجال تدريجياً لتصل للجنون. لم أتوقف أبدًا عن التساؤل عن كيف يتمكن هؤلاء دون مساعدة الكحول من إعادة إنتاج مراحل مختلفة من الثمل. بينما أستلقي وأشاهد القمر يعتلي بهدوء هؤلاء الرجال المحمومون وظلالهم السوداء الملتوية، فكرتُ أنهم في حالة تكفي فيها كلمة واحدة من رجل مقدس لإرسالهم إلى القتل والنهب بالجملة.

كان من حسن حظي أن أتخلص من ضجيج وأوساخ المسجد. كانت لدي خبرة مع ضباط أتراك قابلين للفساد، وذات يوم حينما أضحت ظروف الثكنة غير محتملة، ذهبتُ إلى ضابط فرقتنا، وهو عربي عجوز من اللاذقية تم استدعاؤه من التقاعد في وقت التعبئة. كان يعيش في خيمة صغيرة بالقرب من المسجد. وجدتُه جالسًا على الأرض، ويومئ برأسه بنعاس فوق كرشه المريحة. ولأنه كان ضابطا في النظام القديم، دخلتُ بشجاعة وجلستُ إلى جانبه وأخبرتُه بمشاكلي. جاء الجواب مع هزة من كتفيه الهائلتين.

* "أنت تخدم السلطان، يجب أن تكون المشقة حلوة"
* "يجب أن أكون أكثر لياقة لخدمته في حال حصلت على مزيد من النوم والراحة"

لوح بيده السمينة حول الخيمة.

وألقى علي نظرة مفهومة: "انظر إليّ، ها أنا ضابط برتبة، ليس لدي حتى بطانية جيدة".

قاطعته: "جريمة، جريمة. إن كان لدي أنا الجندي المتواضع العشرات منها في المنزل. سأتشرف بجلب واحدة إذا سمحت لي". كان صوتي يتراجع بطريقة موحية.

سأل: "كيف يمكنك الحصول على واحدة؟"

"آه ، لدي أصدقاء هنا في صفد ، لكن يجب أن أنام في مكان جيد".

"بالطبع، بالتأكيد. ماذا تقترح؟"

أجبته: "هذا الفندق الذي تديره الأرملة اليهودية قد يكون مناسبًا".

تم تبادل المزيد من وسائل الراحة، وكانت النتيجة أنه تم السماح لي أنا وأصدقائي الأربعة بالنوم في النزل. مكان متواضع، ولكنه أفضل بكثير من المسجد، كل شيء كان في غاية البساطة.



**الفصل الثالث**

**البروباغاندا الألمانية**

هكذا مرت أيام تدريبنا بسرعة ورتابة، حتى صباح ديسمبر المشؤوم، عندما حلت الأخبار مثل صاعقة أنَّ تركيا على وشك أن تتعاون مع ألمانيا. كانت لدينا تقارير من نوع ما عن الحرب. وُزعت علينا نسخ برقيات من القسطنطينية مطبوعة باللغة العربية، تقدم روايات عن انتصارات ألمانية لا نهاية لها، مع ذلك ضحكنا عليها، إنها تلفيقات وكالة أنباء بروسفيل. بسبب شكوكنا فشلنا في منح الفضل للجرمان في النجاحات التي حققوها بالفعل. بالنسبة لنا، من ولدوا وترعرعوا في الشرق مثلنا، لا يمكن أن يكون نجاح الدعاية الألمانية في الإمبراطورية التركية مفاجأة غامرة، لكن اتساعها أذهلنا.

قد يكون من المفيد في الوقت المناسب قول بضع كلمات هنا بخصوص هذه الدعاية كما رأيتُها في فلسطين، والتي انتشرت لمدة عشرين عامًا في ظل تنظيم قوي وفعال.

كانت ألمانيا في حاجة ماسة إلى فلسطين من أجل تحقيق أحلامها الإمبريالية. كانت مفتاح الوضع الشرقي برمته. لم يكن من قبيل المصادفة أن أحضر القيصر إلى دمشق في تشرين الثاني (نوفمبر) 1898، وهو نفس الشهر الذي تم فيه الترحيب بكتشنر في لندن باعتباره انتقم لمقتل لغوردون، حيث قال القيصر عبارته الشهيرة على قبر صلاح الدين: "أخبر الثلاثمائة مليون مسلم حول العالم أنني صديقهم". جميعنا رأينا صورًا للشخصية الإمبراطورية، ملفوفًا في رداء رائع من تصميمه الخاص (والتي يرتفع فوقها البيكيلهاوب البروسي بسمو)، وهو ينتقل من مكان إلى أخرى خلال هذه الزيارة الهامة: ربما رأينا أيضًا رسم كاران داش الكاريكاتوري المشهور (موضوع المراسلات الدبلوماسية) يمثل نفس الشخصية الإمبراطورية، في ثوبه الشرقي، يتجه إلى القدس على ظهر حمار.

سخرت دول أوروبا من هذه الزيارة وشفافيتها، لكنها كانت كلها جزءًا من المخطط الذي أدى لفوز الألمان بامتيازات خط سكة حديد كونيا - بغداد، وجعلتهم أصحاب الوادي المزدوج لنهري دجلة والفرات. حيث تضمن لهم الخطوط الفرعية المتوقعة عبر الفرمان سيطرة عملية على كل من الطرق السورية نحو البحر الأبيض المتوسط القبرصي ووديان لبنان. كما أنهم يسيطرون على الطرق الأرمنية الثلاثة لكابادوكيا، والبحر الأسود، وفرع عبر القوقاز من أورفا، وماراتش وماردين. (لقد غير سقوط أرضروم الظروف فيما يتعلق بهذا الأخير). كما سيطروا على الطرق الفارسية نحو طوريس وطهران أيضًا؛ وأخيراً وليس آخراً فرع الخليج في الزبير. تمكن الألمان من السيطرة على بلاد فارس بسبب هذه السكك الحديدية، ومن هنا قد يكون الطريق إلى الهند سهلاً: عبر سوريا يكمن الطريق المؤدي إلى قناة السويس ومصر، والذي تم استخدامه في فبراير 1915، ومن المحتمل أن يُستخدم مرة أخرى هذا العام.

لجعل هذا الحلم الشرقي حقيقة، لم يعول الألمان على امتيازات السكك الحديدية الخاصة بهم وحدها، بذلت حكومتهم ما في وسعها لتشجيع الاستعمار الألماني في فلسطين. انتشرت المطاحن الألمانية في جميع أنحاء البلاد دون أن تجد ما تطحنه لنصف الوقت. افتتحت الفنادق الألمانية في أماكن نادرًا ما يرتادها السياح. ظهر المهندسون الألمان وهم يقومون بالمسح ، والسبر، والملاحظة. قام كل هؤلاء المستعمرين بعقد تجمعات في القرى العربية، أخبروا السكان الأصليين الجاهلين بعظمة ألمانيا، ونواياها الحسنة، ومكائد القوى الأخرى الشريرة. ما ذكرته هنا يمكن أن يؤكده أي شخص عرف فلسطين وعاش بها.

عندما علمنا لأول مرة أن تركيا ستنضم إلى القوى الجرمانية، جاءت أنباء إلغاء "التنازلات". من المعروف أن الأجانب كانوا يتمتعون في السابق بحماية قُنصلياتهم. لم يكن للحكومة التركية بموجب شروط ما يسمى بالتنازلات أو الاتفاقيات ولاية قضائية على أمريكي أو فرنسي على سبيل المثال، ولا يمكن القبض عليه دون موافقة قنصل بلاده. كانت هذه الحماية السياسة مفيدة وضرورية في الإمبراطورية العثمانية، حيث لم يكن القانون والعدالة في أفضل أوضاعها. كان إلغاء الامتيازات بمثابة ضربة مروعة لجميع الأوروبيين، الأمر الذي تسبب في الإلغاء العملي لجميع حقوقهم. كان تأثير ذلك على العرب بمثابة الشراب المسكر، شعر كل ماسح أحذية أو ملاح أنه مساوٍ لفرنسي ملعون لم يعد لديه الآن قنصل يحميه. وبدأت الانتهاكات على الفور. علاوة على ذلك، وكما لو كان سحرًا، أصبحت البلاد بأكملها ألمانية. انتهت صلاة الجمعة في جميع المساجد بدعاء لخير السلطان و"الحاج فيلهلم". تكمن دلالة ذلك في حقيقة أن لقب "الحاج" لا يمكن استخدامه بشكل صحيح إلا على المسلم الذي قام بالحج إلى مكة المكرمة وقبل حجر الكعبة المشرفة.

كان الموت الفوري هو العقوبة التي يدفعها أي مسيحي موجود داخل هذه الحظيرة المُسيّجة، ومع ذلك، قُدِّم فيلهلم الثاني رئيس الديانة اللوثرية كـ"حاج فيلهلم"، وبيعت صوره في كل مكان. انتشر الضباط الألمان، وبدا كما لو أن رياح السيادة الوحشية كانت تعصف. كانت الشخصية المسيطرة على هذه الحركة في فلسطين، بلا شك، القنصل الألماني في حيفا، ليوتويلد فون هارديغ. الذي سافر في أنحاء البلاد، ملقيًا الخطب، وموزعًا كتيبات باللغة العربية تبرهن بإسهاب أن الألمان ليسوا مسيحيين مثل الفرنسيين أو الإنجليز، لكنهم من نسل النبي محمد. نقلت آيات من القرآن تنبأتْ بمجيء القيصر كمخلص للإسلام.

**الفصل الرابع**

**صنع الطريق والانطلاق**

أحدث خبر إعلان الحرب الفعلي من قبل تركيا هزة هائلة بسن فوجنا، وساد الشعور بالقلق والاستياء. أدلى العرب بتصريحات عنيفة كثيرة ضد ألمانيا، قالو: "لماذا لم تساعدنا ضد الإيطاليين أثناء حرب طرابلس، والآن تجرنا إلى القتال بعد أن أصبحت في ورطة!". مع ذلك، سرعان ما خضعت آرائهم للتغيير. أدركوا بداية أن تركيا قد حملت السلاح ضد روسيا، وروسيا تعتبر في المقام الأول العدو اللدود. وكان للتقارير الألمانية عن النجاحات الألمانية تأثير قوي عليهم، بدأوا في التباهي والغطرسة، وأقنعهم مشهد نهب الأوروبيين واليهود والمسيحيين بأن هناك نظامًا مرغوبًا فيه للغاية. لصفد مستعمرة يهودية كبيرة، وكان معذبًا بالنسبة لي أن أشهد الاعتداءات التي عانى منها شعبي باسم "الاستيلاء".

جاءت الضربة القاضية ذات صباح عندما تم استدعاء جميع الجنود اليهود والمسيحيين من فوجنا وأخبارهم أنهم سيخدمون من الآن فصاعدًا في فيلق الأعمال الشاقة أو "طابور عملية" كما كان يُطلق عليها. كان الهدف من هذا الإجراء هو استمالة الأمة المحمدية وتملقها، وفي نفس الوقت وضع اليهود والمسيحيين الذين فضلوا في الغالب جانب الحلفاء في موقف يكونون فيه أقل خطورة على القوات. نزع منا السلاح، وأخذ زينا الرسمي، أصبحنا "رجال عصابات". لن أنسى أبدًا الإذلال الذي حدث في ذلك اليوم عندما قادونا -نحن الذين وقبل كل شيء أفضل القوات انضباطًا في المجموعة- إلى عملنا الجديد في دفع عربات اليد وحمل المجارف، بينما يبتسم العرب والبنادق على كتوفهم. بدأنا ببناء الطريق بين صفد وطبرية على بحر الجليل، وهي وصلة على الطريق السريع العسكري من دمشق إلى الساحل، ستستخدم لتحركات القوات في حالة قطع خط السكة الحديد. مع ذلك، لم يكن لها تأثير استراتيجي مباشر في الهجوم على السويس.

كنا نعمل بكامل لياقتنا من الساعة السادسة صباحًا حتى السابعة مساءً، باستثناء ساعة واحدة من الراحة في الظهيرة. امتلكنا المال وكان من الممكن الحصول على بعض الراحة عن طريق رشوة مسؤولي المهام لدينا؛ لكن سرعان ما انتهى الأمر، وكان علينا تحمل وحشيتهم قدر الإمكان. العربات اليدوية التي استخدمناها مملوكة لشركة فرنسية كانت قبل الحرب تتعهد مشروع طريق سريع إلى بيروت. لم يتم توفير شحم للعجلات، لذلك كانت تطقطق وتصر بجنون، بجانب صعوبة دفع عربات اليد. اقترحت على ضابط التفتيش ذات يوم أنه إن لم يتم تشحيم العجلات، ستحترق المحاور، اتفق معي وأصدر أمرًا بأن يزود الرجال بالزيت الخاص بهم لتشحيم العجلات.

لن أسهب في الحديث عن المعاناة الجسدية التي مررنا بها أثناء العمل على هذا الطريق، فالظروف التي وصفتها كانت سائدة في جميع أنحاء البلاد، وعندما أتيحت لي الفرصة لاحقًا لزيارة بعض مخيمات البناء في السامرة ويهودا، وجدت أن نصيبنا كان أفضل. بينما كنا نكسر الحجارة وندحرج عربات اليد المطقطقة، بدأت الشائعات المقلقة تنتقل إلينا من قرانا الأصلية. جرى النهب باسم "الاستيلاء"، وامتلأت البلاد بالجنود الذين كنا نعرف جيدًا قدرتهم على ارتكاب الأذى، وكان من المُعذِّب التفكير فيما قد يحدث في منازلنا المسالمة حيث لم يُترك سوى عدد قليل جدًا من الرجال للحماية.

سمعنا أن كل أسوار الأسلاك الشائكة قد نزعت وأرسلت شمالاً لبناء الحواجز. في أرض برية مثل فلسطين حيث لا يحترم المواطن الأصلي الملكية، وحيث الحقول والمحاصيل دائمًا تحت رحمة اللصوص، كان سياج الأسلاك الشائكة عاملاً حضاريًا هائلًا، ومع اختفائه عاد العرب مرة أخرى في اكتساح جميع أنحاء البلاد يسرقون ويدمرون دون عوائق.

أمسى الوضع لا يطاق أكثر فأكثر. اختفى ذات يوم جندي صغير مسيحي. لم نره مرة أخرى، علمنا أن أخته وهي فتاة صغيرة جدًا، قد اقتيدت بالقوة من قبل ضابط تركي في حامية الناصرة. في فلسطين يمكن مسح عار الفتاة بالدم وحده. بحث الجندي الشاب عن أخته فوجدها في الثكنة، وأطلق عليها الرصاص ثم سلم نفسه للسلطات العسكرية التي قتلته بلا شك. لم يجرؤ على قتل المجرم الحقيقي - الضابط - لعلمه أن هذا لن يؤدي إلى الموت لعائلته فحسب، بل إلى معاناة رهيبة لجميع مسيحيي الناصرة.



عندما علمتُ بهذه المأساة قررت الخروج من الجيش والعودة إلى قريتي بأي ثمن. يمكن شراء تسعة ضباط أتراك من كل عشرة، وكان لدي سبب لأعرف أن الضابط المسؤول في صفد لم يكن ذلك الرجل العاشر. ووفقًا لقانون الدولة الآن، يحق للرجل شراء إعفاء من الخدمة العسكرية بمبلغ يعادل مائتي دولار. كانت حالتي مختلفة لأن اسمي كان مدرجًا بالفعل، لكن كل شيء ممكن في تركيا. شرعت في العمل وفي أقل من أسبوعين اشتريت نصف دزينة من الضباط تتراوح رتبهم من عريف إلى نقيب، وحصلت على موافقة السلطات العليا على مغادرتي شريطة أن أحصل على شهادة طبيب تفيد أنني غير لائق للخدمة.

أنجزتُ الترتيبات في وقت قصير رغم أنني أتمتع بصحة جيدة والصعوبة التي واجهتْ الطبيب في الوصول لمرض مناسب. فقرر أخيرًا أن لدي "الكثير من الدماء"، مهما كان معنى ذلك. مع شهادته تلك دفعتُ السعر المعتاد البالغ مائتي دولار من الأموال التي أرسلتها لي عائلتي وخرجتُ من الثكنات رجلاً حراً. اختلطت سعادتي بالحزن لفكرة ترك الرفاق الذين عانيتُ وحلمتُ معهم، كان أولاد قريتي الأربعة رائعين، لقد شعروا أنني كنتُ على حق في العودة إلى المنزل كي أفعل ما بوسعي للناس، لكن عندما قبلوني وداعًا على الطريقة الشرقية، انهمرت الدموع على وجناتهم، كانوا جميعًا رفقاء أقوياء وشجعان.

مررتُ في طريق عودتي إلى زكرون - يعقوب، ببلدة شيفعمرو، حيث حصلتُ على فكرة مسبقة عن الوضع الذي سأجده في المنزل. رأيتُ جنديًا تركيّ يتجول على طول الشارع ويتناول فاكهة من سلة بائع كبير في السن دون أن يعرض دفع أي مقابل. عندما غامر الرجل بالاحتجاج، استدار الجندي مثل وميض وبدأ يضربه بلا رحمة، طرحه أرضًا وضربه حتى أصيب بكدمات ونزيف، وأصبح مغطى بطمي الشارع. حدث صخب، وتكوّن حشد من خلاله شق ضابط تركي طريقه مطالبًا بتفسيرات. روى الجندي الموقف في بضع كلمات، عندها التفت الضابط إلى الرجل العجوز قائلا: "إن اختار جندي السلطان أن يكوم القذارة على رأسك فعليك أن تقبّل يده بامتنان".

**الفصل الخامس**

**الأسلحة المخفية**

وصلتُ أخيرًا إلى زكرون - يعقوب، لأجد الوضع محزنًا. أُعلن القانون العسكري الذي يمنع الخروج من المنزل بعد غروب الشمس. كانت القرية مليئة بالجنود، وكان على المدنيين تحمُّل جميع أنواع سوء المعاملة. علاوة على ذلك، أصيب شعبنا بحالة هياج شديدة لأنً أمرًا صدر مؤخرًا من السلطات التركية يأمرهم بتسليم أي أسلحة بحوزتهم. وهذا أمر مشؤوم، فقد علمنا أنه تم اتخاذ إجراءات مماثلة قبل المذابح الأرمنية الرهيبة، وشعرنا أنً بعض هذا المصير قد يكون مُعدًا لشعبنا. علم رؤساء القرية أنً عدم امتلاك سلاح يعني عدم قدرتنا على مقاومة العرب، وستزول فرصتنا الأخيرة للدفاع ضد العنف المفاجئ، لذا رفضوا التخلي عن السلاح. بحثوا عنها من منزل إلى منزل دون جدوى، لأنً ترسانتنا الصغيرة كانت مخبأة بأمان في الحقول أسفل الحبوب النامية.

كان موقفًا مقلقًا ومزعجًا. قد يقرر الأتراك في أي وقت دعم مطالبهم ببعض الأساليب العنيفة التي كانوا أسيادها في الماضي. عُقد مجلس عائلي في منزلي وتقرر إرسال أختي ابنة الثالثة والعشرين إلى بعض الأصدقاء في الكلية الأمريكية السورية البروتستانتية في بيروت، حتى نتمكن من التنقل بحرية دون مسؤولية وجود فتاة في المنزل، في بلد تُختطف النساء حتى قبل المجزرة. علمنا أنً هناك قنصلًا عامًا أمريكيًا في بيروت ظل على اتصال مستمر بالسفينة الحربية الراسية في المرفأ حماية للمصالح الأمريكية.

غادرت أختي في الوقت المناسب تمامًا. في إحدى الأمسيات بعد وقت قصير من مغادرتها، وبينما أقف عند مدخل منزلنا أشاهد المعجزة المتجددة لغروب الشمس الشرقية، جاء ضابط تركي على حصانه رفقة حوالي ثلاثين من الفرسان. ناداني وأمرني أن أتبعه إلى نزل القرية الصغير، حيث ترجل وقادني إلى إحدى الغرف الداخلية، بينما يصدر مهمازاه صوتًا عاليًا أثناء مشينا على طول الممر الحجري. لم أعرف أبدًا ما إن كان قد تم اختياري لهذا بسبب مكانتي البارزة كقائد للشباب اليهود، أو لمجرد صدفة وقوفي في مكان قريب عند المدخل. أغلق الضابط الباب ودخل في الموضوع مباشرة بسؤالي عن مخزن الأسلحة خاصتنا.

كان ضخمًا ذا ملامح وسيمة وقاسية، معتادة بما يكفي بالنسبة لصنفه. لم أجد شبهة تهديد مع سؤاله الأول. عندما رفضت إخباره، بدأ في تملقي وعرض كل أنواع الخدمات إذا ما خنت شعبي. ثم قام فجأة بنزع مسدسه ووضع فوهته على وجهي. شعرتُ بالدم يغادر قلبي، لكنني سيطرتُ على خوفي ورفضتُ طلبه. لم يكن من السهل تثبيط عزيمته. كانت ساعات فظيعة عشتُها في تلك الغرفة الصغيرة التي يضيئها مصباح كيروسين. مع ذلك، أدركتُ الأهمية الهائلة لمسألة الأسلحة، ومنحتني القوة للصمود حتى استسلم الضابط في حالة من الاشمئزاز وسمح لي بالعودة إلى المنزل.



لم يعلم والدي، وهو رجل عجوز، شيئًا عما حدث، لكن بقية أفراد عائلتي كانوا مهتاجين للغاية. شرحت لهم وضعنا الراهن، لكني شعرت أنً هذه كانت البداية فقط. وبالتأكيد عاد الضابط نفسه صباح اليوم التالي - يوم السبت - ووضع ثلاثة من كبار شيوخ القرية بالإضافة لشخصي، قيد الاعتقال. بعد تحقيق آخر غير مثمر في الفندق تم تقييد أيدينا وسرنا على الأقدام نحو السجن، في رحلة تستغرق يومًا كاملًا. مع مرور موكبنا الصغير بجانب منزلي، جاء والدي الذي كان مسنًا وضعيفًا، مترنحًا ليودعني. دفعه جندي بقوة إلى الخلف، ترنح ثم سقط بالكامل في الشارع أمام عيني.

كان رحيلًا كئيبًا. أخذونا مكبلين في الشوارع مثل المجرمين. خرجت النساء والأطفال من المنازل يشاهدون في صمت، محنين رؤوسهم والدمع يجري على الخد. أدركوا أنً رفاقي المسنين كافحوا وعانوا لمدة خمسة وثلاثين عامًا من أجل مثلهم الأعلى "فلسطين المتجددة". وفي غسق حياتهم صار الأمر الآن كما لو أنً كل آمالهم وأحلامهم بدأت بالتداعي. استوطنني ثقل وضع المأساة أكثر فأكثر مع مرور اليوم وتعرض رفاقي للحرارة والتعب. لابد أنً مشاعري كانت واضحة على وجهي بشكل كبير، لأنً أحدهم وهو شيخ جليل وجميل المظهر، حاول أن يمنحني العزاء من خلال تذكيري بأنه يجب ألا نعتمد على قوة السلاح وأنً أرواحنا أبدًا لن تنكسر مهما كُنّا عُزّلًا. كان هذا الشيخ يشجعني بدلاً من تلقي المساعدة من شبابي وحماستي.

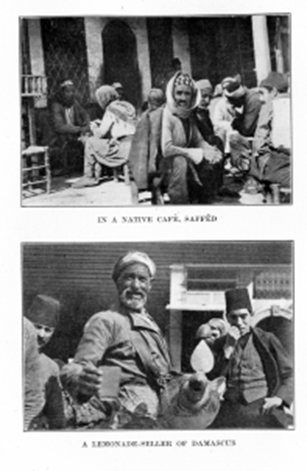
وصلنا أخيرًا إلى السجن وحُبسنا في زنازين منفصلة. في الليلة نفسها تعرضنا للتعذيب ب"الفلجي" أو العصا. حيث يستند ضحية هذا العقاب المروع على ذراعيه وركبتيه، ثم يجلده الجندي بقوة على بطن قدميه العاريتين بعود أخضر مرن. الألم شديد. يتناثر الدم منذ الجرح الأول، ويغمى على الرجال الأقوياء عادة بعد ثلاثين أو أربعين ضربة. غريب القول إنً أسوأ جزء منها ليس الضربة نفسها، بل صفير السوط في الهواء وهو يندفع نحو هدفه. ساعدتني آهات رفاقي الأكبر سنًا وصلواتهم عبر جدران الزنزانة على تحمل الألم حتى جاء فقدان الوعي بالرحمة وخلصني.

بقينا في السجن لعدة أيام أخرى، مرضى محطمين من المعاناة. في الليلة الثانية بلا نوم يغرمني اليأس، وأنا مستلقٍ على حصير متسخ، سمعتُ خدشًا في شق النافذة، وحالًا دخلت عصا رفيعة في الزنزانة. صعقت، كان أحدهم في الطرف الآخر يمسكها بثبات. ثم بدأ صوت هامس فضولي يأتي من نهاية العصا، أنزلت أذني إلى أسفل والتقطت صوت أحد رجال قريتنا. أخذ عمودًا طويلًا من الخيزران وقام بثقب المفاصل، وزحف خلف جدار قديم متصدع بالقرب من نافذتي. من خلال هذا الهاتف البدائي تحدثنا كلما ملكنا الجرأة. أكدتُ له أننا ما زلنا ثابتين، وحثثته على عدم التخلي بأي شكل من الأشكال عن الأسلحة للسلطات التركية، حتى وإن اضطررنا إلى تقديم أقصى تضحية.

وأخيرًا حين تبين أنً التعذيب والسجن لن يجعلانا نفصح عن سرنا، لجأ الأتراك إلى الاختبار النهائي. وهو بلاء لن نستطع تحمله. أعلنوا أنه في تاريخ معين سيتم نقل عدد من فتياتنا الصغار وتسليمهنّ إلى الضباط حتى الكشف عن الأسلحة. علمنا أنهم قادرون على تنفيذ هذا التهديد، عرفنا بالضبط ما يعنيه ذلك. لم يكن هناك بديل، ولم يكن لدى سكان قريتنا بدًا من نبش الأسلحة الغالية وتسليمها للسلطات بقلوبٍ محطمة.

وهكذا ذات صباح وصلتنا الأخبار المرعبة أننا أحرار. شخصياً شعرتُ بسعادة في اليوم الذي أودعت فيه السجن أكثر من يوم إطلاق سراحي. كثيرًا ما تساءلتُ كيف استطاع شعبنا تحمل المخلعة والمسمار اللولبي لمحاكم التفتيش الإسبانية، لكن عندما جاء دوري ورفاقي للتعذيب، أدركتُ أنً الروح التي ساعدت أسلافنا نفسها كانت تعمل فينا أيضًا.

علمتُ الآن أنً معاناتنا كانت عديمة الفائدة، فمتى ما رغبت السلطات التركية، ستتكرر أهوال المذابح الأرمنية مرة أخرى في زكرون-يعقوب، بينما نحن عاجزون عن حماية أنفسنا. عدنا إلى المنزل نعرج في شوارع قريتنا، ورأيتُ مسدس سميث أند ويسون الخاص بي في يدي صبي في الخامسة عشرة من عمره، ابن رجل عربي معروف خارج عن القانون. أدركتُ حينها أنً الأتراك لم يأخذوا أسلحتنا فحسب، بل وزعوها على السكان الأصليين لإكمال إذلالنا. اندفع الدم إلى وجهي. تقدمتُ لأخذ المسدس من الصبي لكن أحد الرجال المسنين أمسك بكمي وأوقفني.



**الفصل السادس**

**حملة السويس**

تحدثتُ عن ما يسمى بـ "المصادرة" الذي وقع على شعبنا أثناء عملي في صفد. كان بمثابة نهب بالجملة. فقد استهدف اللصوص الأتراك بشكل خاص عربات سحب ونقل الحيوانات. نظرًا لأنً العرب لا يعرفون سوى القليل، أو لا يعرفون شيئًا عن نقل الخيول والبغال أو إدارتها، استدعى الأتراك ببساطة العديد من المالكين - رجال في منتصف العمر أو كبار السن - وأجبروهم على الذهاب جنوبًا للمساعدة في الاستعدادات الهائلة للهجوم على السويس. وكان من بين هؤلاء عدد من رجال قريتنا. وبمرور الوقت بدأت أسرهم في تلقي رسائل مروعة. كانوا معدمين تمامًا، لم يدفع لهم الأتراك أجورًا، أصبحت ثيابهم رثّة، وأصاب معظمهم المرض. بعد التخطيط المتحمس تقرر إرسالي ورجل آخر إلى الجنوب في رحلة استكشافية مع مبلغ كبير من المال جمعه شعبنا بصعوبة بالغة. ومن خلال نفوذ أخي في محطة التجارب الزراعية حصلت على إذن من المختار لمغادرة زكرون - يعقوب. وفي منتصف شهر كانون الثاني (يناير) عام 1915 انطلقت نحو القدس.

فكرة استخدام المدينة المقدسة كقاعدة للعمليات العسكرية الحديثة بالنسبة للعقول الغربية يجب أن تكون مليئة بالتناقضات. في واقع الأمر، كان مشهدًا رائعًا أن ترى الشوارع مليئة بالجنود يرتدون الكاكي، وأن تسمع الصمت المتأجج للجدران القديمة تحطمها أحذية الجيش المصنوعة من الصلب. هنا رأيت ولأول مرة الضباط الألمان، العديد منهم. منظرهم غريب وفي غير محله، مع لونهم الوردي الشاحب بحيث لا يمكن لأي قدر من أشعة الشمس أن تحرقه تمامًا. كانوا يرتدون الزي الرسمي للضابط الألماني، إلا أنه تم استبدال البيكيلهاوب بخوذة واقية من الشمس باللون الكاكي. أذهلني مدى شبابهم، الكثيرون منهم كانوا مجرد صبيان، وكان هناك الكثير من الوجوه الضعيفة الفاسدة، وهي الحقيقة التي تبينتُها لاحقًا عندما سمعت أنً فلسطين كانت أرضًا لنفي شباب الأسر الميسورة، والذين كان آباؤهم حريصين على إبعادهم بقدر الإمكان من منطقة الخطر. كان فندق فاست مكانًا رائعًا لهذه الدماء الشابة في القدس.

يجلس كل مساء ثلاثون أو أربعون منهم هناك يشربون ويثرثرون حول النساء والتخطيط الاستراتيجي. أتذكر جيدًا تلك الأمسية عندما قام أحدهم - شاب بروسي نحيف، يرتدي سوارًا ونظارة أحادية وردية - وأعلن بلهجة حاسمة ثملة: "ما يجب علينا فعله هو تسليم تنظيم هذه الحملة إلى شركة توماس كوك وأبنائه".

مع ذلك، لم يكن الضباط الألمان بأي حال من الأحوال غير أكفاء. سرعان ما اكتشفتُ أنهم أدركوا ضآلة أملهم في جلب جيش كبير عبر الصحراء المصرية والقيام بحملة ناجحة هناك. كان هدفهم هو شلّ حركة قوة كبيرة من القوات البريطانية موجودة حول القناة، وإبقاء المحمديين في فلسطين معجبين بالقوة التركية، وإثارة الاضطرابات الدينية بين السكان الأصليين في مصر. يجب الاعتراف أنهم نجحوا في أول غرضين من أغراضهم.

الأتراك أقل بعد نظر، كانوا يؤمنون إيمانًا راسخًا أنهم سيطردون الإنجليز من على وجه الأرض ويدخلون القاهرة منتصرين، واستمرت الاستعدادات لمسيرة السويس بحماس محموم. كانت أفكار الجنود العاديين حول هذا الموضوع مسلية، قال بعضهم إنَّ القناة ستُملأ بأكياس الرمل التي أعدت بكميات كبيرة. ورأى آخرون أنه سيتم الإبقاء على آلاف الجمال بلا ماء لعدة أيام قبل الهجوم، وعند إطلاقها ستندفع الحيوانات العطشى إلى القناة بأعداد كبيرة بحيث يمكن للقوات أن تسير نحو النصر فوق أشلاء الحشود المكدسة من الجثث الغارقة.

بلغ عدد قوات الجيش المتوجهة صوب السويس حوالي مائة وخمسين ألف رجل، من بينهم حوالي عشرين ألفًا من الأناضول الأتراك، كانوا جنودًا مدربين، مع عدة قتالية ممتازة، كما اتضح ذلك في صمودهم في الدردنيل. البقية كانوا من عرب فلسطينيين، جنودًا أقل شأنا. العربي هو جندي غبي وماكر في آن، شرس عندما يكون النصر حليفه، لكن لا يمكن الاعتماد عليه عندما تسير الأمور ضده. تولى قيادة الحملة ذائع الصيت جمال باشا، وهو جنرال تركي شاب يتمتع بطاقة جبارة، لكنه لا يملك القدرة الكبيرة على رؤية ما وراء التفاصيل والمفاهيم الكبرى للخُطط الاستراتيجية. ورغم كونه صديقًا عظيمًا لأنور باشا، إلا أنه كان ينظر بازدراء إلى الضباط الألمان، خصوصًا باخ باشا، الحاكم الألماني للقدس، والذي كانت لديه خلافات جدية معه. انتشر كره الألمان وسط صغار الضباط الأتراك. العديد منهم بعد سنوات طويلة من الخدمة وجدوا أنفسهم خاضعين للأجانب الشباب الذين حصلوا بالإضافة إلى الترقية الاعتباطية على رواتب أعلى بكثير من الأتراك. بالإضافة لذلك كانوا يتلقون رواتبهم ذهبًا يخشخش، في حين يحصل الأتراك على العملات الورقية، هذا إذا دُفع لهم في الأساس.

كانت بئر السبع مدينة مزدهرة في مقاطعة إدوم القديمة، ومثلت القاعدة الجنوبية لعمليات التقدم نحو السويس. أرسل بعض رجال قريتنا إلى هذه المنطقة، وأثناء البحث عنهم أتيحت لي فرصة رؤية مكان انطلاق الحملة. بعد هذه النقطة لم يُسمح لأي يهودي أو مسيحي بالمرور، باستثناء الأطباء، جميعهم كانوا من غير المسلمين الذين أُجبروا على الالتحاق بالجيش.

عجّت بئر السبع بالجيش، ملأوا المدينة وطفحت أعدادهم على الرمال في الخارج، حيث نشأت مدينة خيام كبيرة. وأينما ذهب الجنود الأتراك تبعتهم الفوضى وعدم الكفاءة. شهدت جميع أنحاء البلاد "مُصادرة" أجود الجمال وأرسلت إلى بئر السبع حتى وقت وجودي هناك، كما جُمعت الآلاف والآلاف منها في الحيّ. بسبب كسل وغباء ضباط المفوضيات الأتراك، والذي لا يمكن لأي قدر من الكفاءة الألمانية أبطاله، لم يتوفر الطعام الكافي، فماتت أعداد هائلة من الجوع والإهمال. انتشرت جثث الجِمال في الرمل في كل الاتجاهات. كانت الشمس الشرقية هي القوة المطهرة الرائعة التي كبحت الوباء.

عانى الجنود أنفسهم الكثير من المشقة، حيث كان الازدحام في الخيام لا يوصف. وإمداد المياه غير كافٍ تقريبًا مثل ضعف الخدمة الطبية، التي تكونت أساسًا من جمعيات الهلال الأحمر التطوعية، من بينها وحدة من عشرين ممرضة ألمانية أرسلتها الكلية الأمريكية في بيروت. أخذتْ الإمدادات الطبية من مستشفيات وصيدليات إرسالية مختلفة في فلسطين. تكفّل بهذه "المصادرات" ضباط لا يعرفون شيئًا عن المتطلبات الطبية، قاموا ببساطة بجمع كل ما وجدوه. أخبرني أحد أطباء الجيش في بئر السبع أنه قام بفتح بعض الصناديق الطبية المرسلة إليه ووجد، لدهشته، أنها مليئة بالمجاهر وأدوات طبية مُخصصة لأمراض النساء، أرسلت لرعاية الجنود الجرحى في الصحراء.

كانت زيارات الطائرات البريطانية إلى بئر السبع ظاهرة شائعة. قبل وقت طويل من رؤية الآلة نفسها، يخرج طنينها المتذبذب والرنان عائمًا من السماء الحارقة، يبدو كما لو أنه قادم من كل مكان. اندفع الجنود من خيامهم محدقين في السماء حتى تم اكتشاف الآلة السابحة ببطء في الهواء، يعقب ذلك إطلاق نار كثيف لمدى مستحيل إلى أن يتمكن الضباط من وقفه. والتزامًا بسياسة تجنب الأذى غير الضروري للسكان الأصليين، لم يقم هؤلاء الطيارون البريطانيون مطلقًا بإلقاء القنابل على المدينة، لكن - والأكثر خطورة من وجهة النظر التركية - قاموا بتفريغ حزم كتيبات مطبوعة باللغة العربية لإعلام السكان الأصليين أنهم مغرَّر بهم، وأنً الحلفاء هم أصدقاؤهم الحقيقيون الوحيدون، وأنً الألمان يستفيدون منهم فقط في تعزيز مخططاتهم الخاصة، وما إلى ذلك. اُستُقبلت هذه الكتابات الصغيرة الذكية المنهمرة من السماء بحماسة في البداية. لكن سرعان ما أعلن القادة الأتراك أنً كل من توجد بحوزته سيواجه عقوبة الإعدام. بعدها صار السكان الأصليون يركضون من تلك الحزم الصغيرة التي تسقط بالقرب منهم كما لو أنها قنابل شديدة الانفجار.

مع أخذ الأمور بعين الاعتبار، من الرائع أن تكون المسيرة التركية ضد القناة قد اقتربت من الاكتمال.عبر عشرين ألف جندي الصحراء في ستة أيام بمؤن شحيحة، أخذوا معهم مدفعين كبيرين، قاموا بجرهما حتى سقطت البغال من العطش والإرهاق. كما حملوا عوامات لاستخدامها في عبور القناة. هذه المدافع والطوافات تستريح الآن في متحف بالقاهرة.

قلة قلية لديها علم بما حدث في يوم الهجوم. لم ير الإنجليز أنه من المناسب نشر التفاصيل، ولم يكن هناك الكثير مما يمكن الحصول عليه من الجنود المحبطين الذين عادوا إلى بئر السبع. عرفتُ بعدها أنً الطرف المهاجم قد وصل إلى القناة عند الفجر، وشرعوا في العبور عندما وجدوا الوضع هادئًا، حتى إنهم قد أطلقوا إحدى العوامات في الماء، وعندها فتح البريطانيون نيرانًا مرعبة من الضفة البعيدة، مدعومة بقاطرات مدرعة وطائرات. قال لي أحد الجنود: "كان الأمر كما لو أنً بوابات جهنم قد فتحت وأُطلقت علينا نيرانها".

نجح الأتراك في تشغيل أسلحتهم لفترة قصيرة جدًا. أصيب بعض الرجال في القناة، وتضررت عدد من منازل الاسماعيلية. لكن سرعان ما طُرد الغزاة في حالة من الارتباك، تاركين ربما ألفي أسير في أيدي الإنجليز. كان بإمكان الإنجليز إبادة القوات التركية في ذلك الوقت. مع ذلك، دفعتهم حساسية المحمديين في مصر إلى تبني سياسة التساهل والبقاء في موقف دفاعي، وهو ما بررته التطورات اللاحقة. يعرف الإنجليز أنً واحدة من مصادر قوتهم في الاحتفاظ بمُستعمراتهم هو أنً البطاريات المُضادة التي أدارها المصريون قامت بأفضل الأعمال في الدفاع عن القناة.

رد الفعل في فلسطين بعد الهزيمة في السويس كان هائلاً، فقبل الهجوم مباشرة، أرسل جمال باشا برقية أعلن فيها الهزيمة الساحقة للطليعة البريطانية، الأمر الذي أثار حماسة شديدة. أعلنت برقية لاحقة أخرى أنهم وصلوا إلى القناة وأغرقوا البريطانيين وهزموهم، وأنً الأتراك قد خسروا خمسة رجال وجملين فقط، "تم استردادها بعد ذلك". وأضافت البرقية: "لكن عاصفة رملية رهيبة هبت، اعتبرها الجيش المجيد رغبة الله في عدم مواصلة الهجوم، وبالتالي انسحبوا منتصرين".

خدعت التقارير السكان الأصليين الجهلة لبعض الوقت، ولكن عندما بدأت تيارات الجنود الهزيلين والجرحى والمُنهكين بالتدفق عائدة من الجنوب، خمنوا ما حدث، وبدأ نفور عنيف ضد النظام الألماني التركي. قبل أسابيع قليلة من التقدم نحو السويس، كنتُ في يافا، حيث كان الحماس والإثارة في أوجهما. كانت هناك مواكب واحتفالات من جميع الأنواع تحسبا لمسيرة النصر نحو مصر. وفي يوم ما تم تسيير جمل وكلب وثور مزينين على التوالي بأعلام روسيا وفرنسا وإنجلترا. تعرضت الحيوانات المسكينة لمعاملة سيئة ومروعة من قبل السكان الأصليين، الذين أمطروهم بوابل من الضربات والقذارة تعبيرًا عن ازدرائهم للحلفاء. تصادف أنني كنتُ في يافا رفقة السيد جلازبروك، القنصل الأمريكي في القدس، لن أنسى أبدًا تعبير الألم والاشمئزاز على وجهه وهو يشاهد هذا المُوكب الصغير الكئيب وأكباش الفداء يسرعون هربًا على طول الشارع.

كل شيء تغير الآن. انقلب العرب، الذين تعرضوا لهزيمة قاسية، على السلطات التي أوقعتهم في هذه المشاكل. انتشرت شائعات مفادها أنً الإنجليز اشتروا جمال باشا وأنً الهزيمة في السويس كانت مخططة من قبله، وبدأ محبو التنصت يسمعون غمغمات عن مذبحة عامة للألمان. في الواقع كان الأمر قاب قوسين من انفجار دموي. عرفتُ بعض الألمان في يافا وحيفا ممن اعتقدوا اعتقادًا راسخًا أنً الأمر قد انتهى بالنسبة إليهم. داخل الجيش المهزوم أظهر الضباط الأتراك كراهيتهم للألمان. قُتل ثلاثة ضباط ألمان برصاص رفاقهم الأتراك أثناء الانسحاب، وانتحر رابع. مع ذلك، نجح جمال باشا في الحفاظ على النظام عن طريق الأساليب القمعية الصارمة، ومشاعر الخوف التي بثتها قوات الحرس الخاص التي تتكون من أناضوليّين أوفياء شرسين.



أيقنّا أنً الهزيمة التركية ستضع حداً لغطرسة الجيش. حتى إنَّ المحمديين كانوا يأملون في أن يأتي الحلفاء بانتصارهم وقواتِهم البريّة حتى سوريا وفلسطين. رغم كرههم للكفرة، إلا أنهم لم يحبوا الترك مطلقًا. وقد استنفدت البلاد، وحظر الحلفاء على البحر الأبيض المتوسط منع استيراد وتصدير الأشياء. تعفّن البرتقال على الأشجار لأنً سوق ليفربول السنوي كان مغلقًا أمام فلسطين، وهو ما واجهته محاصيل أخرى. عانت البلاد أيضًا من نقص في البترول، والسكر، والأرز، وإمدادات أخرى، حتى أعواد الثقاب. كان علينا العودة إلى الطرق القديمة واستخدام الصوان والصلب لإشعال النار، ونادرًا ما استخدمنا مصابيحنا. شحّت الأموال أيضًا، وبعد إعلان تركيا تعليق التعاملات البنكية، كان من غير الممكن الحصول على النقد في كثير من الأحيان، حتى بالنسبة لمن لديهم أموال في البنوك، وتبع ذلك الكثير من الضيق.

بينما كان الجيش المهزوم يتدفق من الجنوب، قررتُ مغادرة بئر السبع والعودة إلى المنزل. كانت الطرق والحقول مغطاة بجمال وخيول وبغال ميتة. والمئات من الجنود في حالة من الفوضى، كثير منهم على وشك المغادرة، والكثير منهم هربوا. بعد هزيمة القناة بوقت قصير، هرب عدة آلاف من الجنود لكن أُعلن العفو وعادوا إلى أفواجهم مرة أخرى.

عندما وصلتُ إلى القدس وجدتُ المدينة مليئة بالجنود. كان جمال باشا قد عاد لتوه من الصحراء، وكان مسكنه محروسًا بمدفعين ميدانيين. لا أحد يعرف ما يمكن توقعه، اعتقد البعض أنً البلاد ستتمتع بمزيد من الحرية الآن بعد أن فقد الجند تبجُّحهم، بينما توقع البعض الآخر الجنوح الذي يرافق الفوضى. ذهبتُ لرؤية القنصل جلازبروك. ْأمريكي حقيقي من الجنوب، كان أستاذًا سابقًا في علم اللاهوت في جامعة برينستون. وكان مهتمًا ومخلصًا لمصالح المواطنين الأمريكيين الذين كانوا تحت رعايته. قدم في القدس الخدمة نفسها التي قدمها السفير مورغنثو في القسطنطينية. عمليًا كان الرجل الوحيد الذي دافع عن فقراء المدينة المسالمين. استقبلني بلطف، وأخبرتُه بما أعرفه عن أوضاع البلاد، وما سمعتُه بين العرب، وعن مخاوفي وقلقي. تأثر بشكل واضح، ونصحني برؤية القبطان ديكر على السفينة يو أس أس تينيسي، والذي كان في يافا حينها، ووعد بأن يكتب بنفسه إلى القبطان عن زيارتي المقترحة.

ذهبتُ إلى يافا في اليوم نفسه، ونجحتُ بعد يومين في رؤية القبطان ديكر بمساعدة السيد جلازبروك الذي اصطحبني معه. تدخلت الشرطة وحاولت منعي الصعود على متن السفينة، لكن بعد مناقشات طويلة سُمح لي بأخذ مكاني في الزورق الذي أرسله القبطان من أجل القنصل.

كان الكابتن ديكر مهتمًا بما سأقوله، وبناءً على طلبه أمليتُ قصتي على كاتب الاختزال الخاص به. لا أعرف ما حدث لتقريري، وما إذا أُرسل إلى وزارة الخارجية أو إذا كان الكابتن ديكر قد تواصل مع السفير مورغنثاو، لكن سرعان ما بدأنا في رؤية بعض الإصلاحات تم تدشينها في أجزاء من البلاد، لم يكن هذا ممكنًا سوى من خلال ضغط من القسطنطينية. لا شك أنً وجود السفينتين الحربيتين الأمريكيين في مياه البحر الأبيض المتوسط كان لها دور فعال في إنقاذ العديد من الأرواح.

**الفصل السابع**

**محاربة الجراد**

بينما كنتُ أسافر في الجنوب، هدّد خطر آخر خيرات شعبنا: الجراد الذي أتى من السودان في حشود هائلة. غيومٌ سوداء من الجراد حجبت الشمس. بدا الأمر كما لو أنّ الطبيعة قد انضمت إلى المؤامرة المُحاكة ضدّنا. كان هذا الجراد من الأنواع المعروفة باسم الجراد المهاجر أو المتجول. لم يأت إلى فلسطين طيلة أربعين عامًا، لكن زيارتهم الآن تشبه ما تحدث عنه النبي يوئيل في العهد القديم. جاؤوا مكتملي النمو، جاهزين للتكاثر، وتغطّت التُربة بحفر الإناث التي أودعت فيها أكياس البيض الخاصة بها، عرفنا أنها ستغمرنا عندما تفقس، لم يكن هناك موطئ قدم في الأرض يخلو من ذلك البيض.

كان الخطر كبيرا لدرجة أنَّ لفت انتباه السلطات العسكرية. أدركوا أنه إذا سُمح للجراد بالنجاح والتكاثر، سيتسبب في مجاعة، ويعاني الجيش مع البقية. استدعى جمال باشا أخي (رئيس محطة التجارب الزراعية في عتليت "حيفا") وأبدى اهتمامه بتنظيم حملة ضد الحشرات. كانت مهمة صعبة بما فيه الكفاية. بجانب أنً العرب كسالى وقدريّون، لا يمكنهم فهم لماذا يجب محاربة "جيش الله" كما يطلقون على الجراد. أعيقت مساعي أخي بشكل خطير بسبب نقص البترول، والحديد المجلفن، والمواد الأخرى التي تعذر الحصول عليها بسبب حصار الحلفاء.

حاول أخي القيام بحملة علمية رغم هذه العوائق. قام جمال باشا بوضع آلاف الجنود العرب تحت تصرفه، عملوا على حفر خنادق يُدفع إليها الجراد الذي فقس توًا وتدميره. هذه هي الوسيلة الوحيدة للتعامل مع الموقف؛ فبمجرد أن يحصل الجراد على أجنحته، لا يمكن فعل أي شيء معه. كانت معركة ميؤوسًا منها. لا شيء أقل من تعاون كل مزارعي البلاد يمكن أن يفوز اليوم. بينما كان سكان القرى اليهودية التقدمية يكافحون حتى النهاية، رجالًا ونساءً وأطفالًا يعملون في الحقول حتى استنفدوا، جلس المزارعون العرب جانبًا وأيديهم مطوية. لم تؤد تهديدات السلطات العسكرية إلا إلى دفعهم نحو بذل جهود فاترة. أخيرًا، بعد شهرين من الكدح، توقفت الحملة وانفجر الجراد في موجات فوق الريف ودمر كل شيء. كما قال النبي يوئيل: "**تَلِفَ الْحَقْلُ، نَاحَتِ الأَرْضُ لأَنَّهُ قَدْ تَلِفَ الْقَمْحُ، جَفَّ الْمِسْطَارُ، ذَبُلَ الزَّيْتُ** … **الأَرْضُ قُدَّامَهُ كَجَنَّةِ عَدْنٍ وَخَلْفَهُ قَفْرٌ خَرِبٌ".**

لم يلتهم الجراد الأوراق الخضراء فحسب، بل قشر اللحاء أيضًا. صارت الأشجار بيضاء فاقدة للحياة، مثل الهياكل العظمية. جُرِّدت الأرض من الحقول، واضطر شيوخ قرانا، الذين بذلوا أرواحهم لزراعة هذه الحدائق وكروم العنب، للخروج من المعابد حيث كانوا يصلون وينوحون ونظروا إلى الخراب بعيون باهتة. لم يبق شيء صالح للأكل. حاولت الحشرات في جوعها الشديد أن تبتلع كل شيء في طريقها. رأيتُ أطفالاً عرباً، تركتهم أمهاتهم في ظل شجرة، يلتهم أسراب الجراد وجوههم قبل سماع صراخهم. ورأيتُ جثث الحيوانات مخبأة تحت بطانية من الحشرات المتموجة. وظل العرب ساكنين في مواجهة هذا الخطر، راضين بالقدر كعادتهم واعتبروا وباء الجراد شرًا لا بد منه، كما لم يفهموا سُعارنا في محاربته. في واقع الأمر، حصلوا على صفقة جيدة من الجراد لأنهم أحبوا أن يأكلوا إناث الحشرات. جمعوا أكوامًا منها وألقوا بها على الفحم المشتعل، ثم التهموا بينما يتحلقون حول النار الحشرات المحمصة باستمتاع كبير. رأيت صبيًا في الرابعة عشرة من عمره يأكل ما يصل إلى مائة حشرة في الجلسة.

**الفصل الثامن**

**لبنان**

أرسلني أخي، أثناء غزو الجراد، في جولة تفقدية للتحقيق من أضرار الحشرة في سوريا. ساعدني جواز سفري الرسمي للسفر في جميع أنحاء البلاد دون تدخل السلطات العسكرية. أتيحت لي فرصة ممتازة لرؤية ما يحدث في كل مكان. دمر الجراد كل شيء من أقصى الجنوب في الصحراء المصرية إلى جبال لبنان في الشمال. لكن الجراد لم يكن الطاعون الوحيد ولا أسوأ ما اشتكى منه الناس، كان النهب تحت اسم "المصادرة العسكرية"، والحكم الاستبدادي لضباط الجيش، وانعدام الأمن العام أكثر تدميراً.

شرعتُ في رحلتي شمالًا، أملًا في عزاء وآفاق أكثر إشراقًا في إقليم لبنان المستقل. قلة من الأمريكيين يعرفون ما هو لبنان. يتخيل معظم الناس أنه ليس سوى جبل وذلك بسبب التلميحات المتكررة في الكتاب المقدس. الحقيقة هي أنه إقليم جميل تبلغ مساحته حوالي أربعة آلاف ميل مربع. يتألف سكان لبنان من طائفتين مسيحيتين هم الموارنة، والدروز، وهما شعوب ذات دين سرّي لا يعرف تعاليمه إلا الأعضاء، ولا يُفصح عنه أبدًا للغرباء. يتسم كلا الشعبين بالقوة والوسامة. تسببت مكائد الأتراك وسياسة "فرق تسد"، في استمرار الحرب بين الموارنة والدروز. في عام 1860 انضمت القوات التركية إلى الدروز وأوقعت في الموارنة مذابح بالجملة امتدت إلى الجنوب حتى دمشق، حيث قُتل عشرة آلاف مسيحي في يومين.



تحركت القوى الأوروبية أخيرًا. أُرسلت خمسون سفينة حربية إلى بيروت، ونزل عشرة آلاف جندي فرنسي في لبنان لإرساء النظام. وأُجبر الباب العالي تحت ضغط القوى الأوروبية على منح الحكم الذاتي لإقليم لبنان. وقعت الحكومات الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والروسية، والنمساوية على ضمان هذا الحكم الذاتي، تبعتها الحكومة الإيطالية بعد عام.

ينعم لبنان منذ ذلك الحين بالسلام. يجب أن يكون حاكم المحافظة مسيحيًّا، لكن المجلس العام للبنان يضم ممثلين عن مختلف الأعراق والأديان. بدأت تنمية مدهشة مع التحرر من القمع التركي، حيث شُيّدت الطرق المرصوفة في جميع أنحاء الإقليم، وتحسّنت أساليب الزراعة، وتمتعت الأرواح والممتلكات بالأمان الكامل. يوجد مثلٌ في فلسطين وسوريا يقول: "في لبنان يمكن للعذراء أن تسافر بمفردها عند منتصف الليل وتكون بأمان، ولن تتم سرقة محفظة من الذهب إذا سقطت في الطريق عند الظهيرة". والمثل يقول الحقيقة الحرفية.

يا لجمال ما تقع عليه عين المرء عندما يعبر الحدود من فلسطين التركية إلى إقليم لبنان. قرى مسالمة ومزدهرة، ومدارس مليئة بالأطفال، ومزارع شاسعة من أشجار التوت والزيتون، ومنحدرات الجبال تتدرج عليها كروم العنب الجميلة، شعب وسيم وقوي، والشرطة منتشرة على كل طريق لمُساعدة الغرباء، والفتيات الصغيرات والنساء يضحكن سعيدات ويثرثرنْ أثناء عملهنّ في الحقول. يبلغ عدد سكان هذا الإقليم حوالي ستمائة ألف، ويصدر سنويًا ما قيمته مليونا دولار من الحرير الخام، وتعتبر تربية دودة القز اختصاصًا لبنانيًّا.

بعد الحكم الذاتي اللبناني ساد النفوذ الفرنسي بين الموارنة والمسيحيين الآخرين في الإقليم. يتحدث معظمهم اللغة الفرنسية، كما صار حُبّ فرنسا بمثابة شعور عميق الجذور لدى الناس. من ناحية أخرى، يشعر الدروز بالتأثير الإنجليزي، على مدى الستين عامًا الماضية كانت إنجلترا صديقة الدروز، ولم ينسوها.

قد يكون من المجدي أن نحكي في كلمات قليلة قصة رجل أنجز العجائب في نشر نفوذ بلاده. السير ريتشارد وود، المولود في لندن لأبوين كاثوليكيين. والذي كان يتطلع منذ طفولته إلى الالتحاق بالسلك الدبلوماسي. جذبه الشرق بشدة، ولكي يتعلم العربية ذهب مع شاب إنجليزي آخر ليعيشا في لبنان. التمسا في بيروت ضيافة البطريرك الماروني، الذي أكرم ضيافتهما لبضعة أيام، بعد ذلك، دعاهم البطريرك أمامه وأخبرهم أنه يجب عليهم مغادرة المدينة في غضون أربع وعشرين ساعة. اكتشفوا سبب طردهم فيما بعد. لم يعلموا أنهم كانوا قيد الاختبار، وأكلوا اللحوم يوم الجمعة، ما جعل البطريرك يعتقد أنهم ليسوا كاثوليك حقيقيين، بل جواسيس.

غادر وود وصديقه بيروت على عجل، لجأ إلى الدروز الذين استقبلوهما بأذرع مفتوحة. عاش وود لمدة عامين بين الدروز في قرية أوبي. تعلم هناك اللغة العربية وأصبح مطلعًا تمامًا على البلد وطرق الدروز، وهناك أتته فكرة ربح الدروز لصالح إنجلترا لمواجهة تأثير الموارنة الفرنسيين. عاد إلى لندن، حيث نجح في إقناع وزارة الخارجية بآرائه، ثم عاد إلى سوريا في مهمة سرية. لم يمض وقتًا طويلًا في محاولة إقناع زعماء الدروز بتقديم التماس إلى إنجلترا يطالبون فيه بالحماية البريطانية.

مُنحوا الحماية البريطانية، وعلى مدى أكثر من ثلاثين عامًا شكل ريتشارد وود بمفرده تقريبًا مصير سوريا. هو الذي كسر سلطة إبراهيم باشا بن محمد علي. وهو الذي قاد الأدميرال ستوبفورد في قصف بيروت. كان هو مرة أخرى، من تسبب في إنزال القوات الإنجليزية في سوريا عام 1841. ثم صار قنصل بريطانيا في دمشق، وأينما ذهب كان دائمًا منشغلًا بنشر القوة والمكانة الإنجليزية. فهم الشرق تمامًا، وشعر أنً إنجلترا يجب أن تكون قوية في سوريا إن أرادت الاحتفاظ بقوتها الإمبريالية. من المؤسف للغاية أنً سياسة السير ريتشارد وود لم تنفذ من قبل أمته.

اقتربتُ من لبنان بآمالٍ وتوقعات كبيرة. كنتُ أتطلع إلى اللحظة التي أجد فيها نفسي بين أناس تحرروا من استعباد تركيا، في بلد يجب أن أكون قادرًا على التنفس بحرية لبضع ساعات.

ولكن كم كان رعبي عظيمًا عندما وجدتُ لدى دخولي لبنان جنودًا أتراكًا في جميع الطرقات يوقفونني كل دقيقة يطلبون رؤية أوراقي. حتى ذلك الحين لم أستطع أن أدرك أنً الأسوأ قد حدث. طبعًا كانت شائعات الاحتلال التركي للبنان قد وصلت مسامعنا قبل أسابيع قليلة لكننا لم نصدقها، إذ كنا نعلم أنً ألمانيا والنمسا من بين الذين ضمنوا الحكم الذاتي للبنان. لكن ثبت أنً القصاصة الورقية التي ضمنت حرية لبنان لم تكن ذات قيمة للبنانيين أكثر من تلك القصاصات الورقية الأخرى لبلجيكا. عندما دخلتُ قرية الدامور الجميلة، وهي واحدة من أكثر الأماكن ازدهارًا وسحرًا على وجه الأرض، رأيتُ أفواجًا كاملة من القوات التركية تخيم في القرية وما حولها.

بينما أسقي حصاني، حاولتُ أن أطرح أسئلة على بعض السكان. شعري الفاتح ولون بشرتي وزيّ الكاكي الذي أرتديه جعلتهم يعتقدون أنني ألماني، وبالكاد أجابوا عليّ، لكن عندما خاطبتهم بالفرنسية أضيت وجوههم. بالنسبة للبنان، يبعد الإقليم آلاف الأميال عن فرنسا، ومع ذلك فهو مثل مقاطعة فرنسية. منذ خمسين عامًا سيطرت اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية على لبنان. لا يوجد فرنسي لديه حب وإيمان بفرنسا أكثر من الموجود في قلوب المسيحيين اللبنانيين. لم ينسوا أبدًا أنه عندما كانت المجازر تهدد بالقضاء على جميع مسيحيي لبنان، اجتاح عشرة آلاف جندي فرنسي الجبال لنشر السلام والحياة والبهجة الفرنسية.

عندما سمع الفقراء اللغة التي يحبونها، وعندما اكتشفوا أنني أيضًا ابن مجتمع مظلوم ومحطم، رووا لي بكل أحزان ومرارات قلوبهم كيف انتشر الجنود الأتراك في جبال لبنان الحبيبة، كيف أبعد الشباب اللبناني القوي والشجاع عن الجبال وأجبر على الالتحاق بالجيش التركي، كيف اختبأت الفتيات والنساء داخل بيوتهن خوفًا من أعين الجنود وضباطهم، كيف سُجن زعماء القبائل بل وشُنقوا حتى، كيف انتشر العنف والنهب في البلاد المسالمة. [حاشية سفلية: منذ كتابة ما ورد أعلاه، أرّخت الصحافة الأمريكية العديد من الفظائع التي اُرتُكبت في لبنان. أدى إعدام القادة والحصار الكامل للجبال من قبل السلطات التركية إلى تجويع ثمانين ألف لبناني. حذّرت الحكومة الفرنسية تركيا عبر السفير الأمريكي أنً الأتراك سيُحاسبون على أفعالهم].

لا يسعني إلا أن أتساءل عن أخطاء الحلفاء. كم كانت ستختلف الحرب إن فهموا الوضع في فلسطين وسوريا. كان بمقدور لبنان وسوريا جمع مائة ألف من الرجال لو أنً الحلفاء هبطوا في فلسطين. كان لبنان ليحارب من أجل استقلاله بشكل بطولي كما فعل البلجيكيون. حتى السكان العرب كانوا سيُرحّبون بالحلفاء كمحررين، لكن للأسف لم يحدث هذا.

تابعتُ رحلتي إلى بيروت بقلب حزين. كان مجيئي مفاجأة سارة لأختي. حدثت أشياء كثيرة محزنة منذ أن رأتني آخر مرة. تعذبت كثيرًا خلال فترة سجني وهي لا تعرف ما سيحدث لي، والآن بعد أن رأتني على قيد الحياة، بكت من السعادة. أخبرتني كيف عوملت بلطف من قبل الرئيس بليس، من الكلية البروتستانتية السورية، وعن كل الأشياء الجيدة التي فعلتها الكلية.

الكلية، يا لها من نعمة كانت على أهل بيروت. تم إنقاذ العديد من التعساء من السجن والمصاعب من خلال تدخل الرئيس بليس. لم يكلّ أبدًا من تقديم الخدمة الشخصية الرائعة. لكن للأسف، حتى نفوذه وسلطته بدأت تتلاشى. تحطمت الهيبة الأمريكية في البلاد، ولم تعد الحكومة التركية تحترم العلم الأمريكي. طالب أمر صادر من القسطنطينية أن تكون اللغة الرسمية للكلية هي اللغة التركية بدلاً من الإنجليزية، حتى إنَّ الضباط الأتراك تجرأوا على دخول مباني الكلية للبحث عن مواطنين ينتمون إلى الدول المتحاربة، دون قلق طلب الإذن من القنصل الأمريكي.



**الفصل التاسع**

**بارون فلسطين اللصّ**

يبلغ عدد سكان مدينة بيروت حوالي مائتي ألف نسمة، نصفهم مسيحيون والبقية محمديون ويهود. شعرت بقرصة الجوع فعلًا هناك. يمكنك شراء الخبز فقط عن طريق بطاقات صادرة عن الحكومة، والأسعار بشكل عام شديدة الارتفاع. السكان مستاؤون ومُهتاجون، وتأتي آلاف النساء كل يوم للبكاء والاحتجاج أمام منزل الحاكم بسبب ندرة الخبز.

كانت سفن الحلفاء الحربية غالبًا ما تمر بالقرب من المدينة، لكن لم يخف الناس منها، حيث من المعروف أنً الحلفاء لا نية لديهم لقصف المدن. حدث قصف واحد فقط قرب نهاية مارس 1915، عندما اقتربت سفينة حربية فرنسية من خليج حيفا وهبط منها ضابط برسالة إلى قائد تلك البلدة لإعلامه بنيته قصف القنصلية الألمانية في الساعة 3 مساءً. جاء هذا الثأر ردًا على الدعاية التي قام بها القنصل ليوتويلد فون هارديغ، وخصوصًا بسبب تدنيس قبور جنود بونابرت. كان لدى القنصل الوقت الكافي لحزم أرشيفه ومقتنياته الثمينة، وغادر منزله قبل الثالثة. بدأ القصف عند الساعة الثالثة بالضبط. تم إطلاق خمس عشرة قذيفة بدقة رائعة، ولم يُمس أي منزل في حي القنصلية، لكن القنصلية نفسها أصبحت عبارة عن كومة من الأنقاض بعد أن أصابتها بضع قذائف. كان السكان هادئين للغاية، فقط المستعمرة الألمانية أصيبت بالذعر. رفع العلم الأمريكي فوق كل منزل ألماني. كان من المضحك أن نرى كل الألمان الذين كانوا نشطين في الجيش التركي يبحثون بشكل أو بآخر عن الأمان من خلال هذه الحيلة.

كان لهذا القصف تأثير واقعي على السكان المحمديين، أراهم أنً الحلفاء لم يكونوا يجهلون تمامًا ما يجري في البلاد، وأنً بإمكانهم أخذ الثأر. كما زادت سلامة غير المحمدييّن وفقًا لذلك.

بشكل عام، كانت بيروت مكانًا هادئًا وآمنًا إلى حد ما. كان لوجود السفن الحربية الأمريكية في الميناء علاقة كبيرة بذلك. سُمح للبحارة الأمريكيين بالذهاب إلى الشاطئ ثلاث مرات في الأسبوع، حيث كانوا ينفقون أموالهم ببذخ. تشير التقديرات إلى أنً بيروت كانت تحصل منهم على أكثر من خمسة آلاف دولار أسبوعياً. لكن السكان الأصليين أعجبوا بشكل خاص بالرجولة والعمل السريع للشباب الأمريكيين. غالبًا ما كان عدد قليل من البحارة ينخرطون في قتال شوارع مع عشرات العرب، ودائمًا ما كسبوا هذه الشجارات. في وقت قصير أصبح الأميركان مهابين، وهو ما يعادل في الشرق القول بأنهم محترمون. اشتهر أهل بيروت بروحهم القتالية، لكن هذه الروح لم تعد واضحة بعد أسابيع قليلة من اللقاء مع السترات الأمريكية الزرقاء.

اكتمل فحصي للدمار الناجم عن الجراد وعدتُ إلى المنزل. لكن الأخبار التي استقبلتني كانت مُقلقة. يجب أن أروي بشيء من التفصيل الأحداث التي جعلتني أقرر أخيرًا مغادرة البلاد. على بعد ساعة -على ظهر الخيل- من قريتنا تعيش عائلة من النبلاء الأتراك، كبيرهم صادق باشا، شقيق كميل باشا الشهير، الوزير الأعظم للإمبراطورية لعدة مرات. جاء صادق، المنفي من القسطنطينية، إلى فلسطين واشترى مساحات شاسعة من الأرض بالقرب من قومي. بعد وفاته، أُجبر أبناؤه، وهم أناس متوحشون، تافهون، على بيع معظم التركة، جميعهم باستثناء فوزي بك، الذي احتفظ بجزء من الأرض وعاش عليها. حيث كون مجموعة من الأصدقاء لا قيمة لهم مثله، وبدأ بالتدريج مسيرة نهب و"رعب" تشبه إلى حد كبير مسيرة البارونات اللصوص في ألمانيا القرون الوسطى. قبل اندلاع الحرب كان اهتمامه مقتصرًا بالدرجة الأولى على العرب الذين يعاملهم بطريقة مهينة. سلب الماشية والمحاصيل، وخطف الفتيات والنساء في وضح النهار. أوقف في إحدى المرات موكب زفاف وخطف العروس الصغيرة، ثم أسر العريس الذي كان يحمل ضغينة ضده، وأخضع البدوي المسكين للضرب بالعصا حتى وافق على تطليق زوجته والقول: "أطلقك ثلاثًا" في حضور الشهود، بحسب العادة المحمدية. كان البدوي حفيد الشيخ الحلو، وهو رجل ذو قدسية في المنطقة اعتاد العرب الصلاة على قبره. لم نخضع نحن أهالي زكرون - يعقوب أبدًا لفوزي بك بأي شكل من الأشكال، كان شبابنا منظمين ومسلحين، وبعد عدة مواجهات تركنا وشأننا.

لكن بعد التجنيد وسحب السلاح، رأى هذا الخارج على القانون أنً فرصته قد حانت. بدأ في إرسال رجاله وجماله إلى حقولنا لجني محاصيلنا ونقلها. استمر هذا النهب حتى جاء الجراد، في غضون ذلك، أصبح فوزي جريئًا لدرجة أنه كان يركض بفرسه في شوارع قريتنا رفقة فرسانه، مطلقًا النار في الهواء يمنة ويسرة، مهينًا الرجال والنساء المسنين. كان يتفاخر وهو يدرك بوضوح أنً السلطات في حيفا كانت عاجزة عن لمسه.



بقي أمل واحد. يتفاخر جمال باشا بأنه أدخل القانون والنظام. وكانت البلاد تحت الحكم العسكري تنتظر رد فعله على جرائم فوزي بك. بناءً عليه، مسلحًا بجواز سفري الخاص كمفتش للجراد ركبتُ إلى القدس، حيث حصلت عن طريق أخي الذي كان في الخدمة آنذاك، مقابلة مع جمال باشا. استقبلني في نفس يوم وصولي، واستمع باهتمام بينما كنت أروي قصة اعتداءات فوزي بك لمدة ساعة كاملة. وضعت كامل قلبي في التماسي، وختمت حديثي بقولي عن حاجتنا إلى شباب الأتراك التقدميين لوقف انتهاكات الإقطاعيين التي تنتمي إلى عصور غابرة. ظهر التأثر على جمال، قفز من كرسيه يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، ثم بإيماءة درامية عظيمة صرخ: "ستتحقق العدالة". أكد لي أنه سيتم إرسال لجنة من ضباط الجيش على الفور لبدء التحقيق. عدت إلى زكرون - يعقوب بآمال كبيرة.

من المؤكد أنه بعد بضعة أيام تم استدعاء فوزي بك إلى القدس. في الوقت نفسه ظهرت "اللجنة" التي تقلصت إلى ضابط واحد في مهمة سرية، وبدأ في إجراء تحقيقات بين المواطنين. في البداية حصل منهم على القليل فقط، لأنهم عاشوا في رعب مميت من الخارجين على القانون، لكنهم أصبحوا أكثر جرأة عندما علموا الغرض من وجوده. توافقت الشكاوي والشهادات في محتواها، وفي غضون أربعة أيام كان لدى الضابط أسماء مئات الشهود، مما يثبت ما لا يقل عن اثنين وخمسين جريمة ذات طبيعة خطيرة. في غضون ذلك، كان أصدقاء وأقارب فوزي يبذلون قصارى جهدهم لوقف موجة الاتهامات. جاء قائم مقام حيفا (نائب محافظ) شخصيًا إلى قريتنا، وهدد كبار السن بإنزال أقسى عقوبة إن لم يتراجعوا عن التهم التي وجهوها، لكنهم وقفوا بحزم. ألم يعطِ جمال باشا، القائد العام للجيوش في فلسطين، كلمة شرف أننا سننصف؟.

سرعان ما بان لنا عمق سذاجتنا في تخيلنا أنً العدالة يمكن أن تتحقق في تركيا من قبل تركي. عاد فوزي بك من القدس، لم يكن يرتدي ملابس المحكوم عليه، بل زي ضابط تركي. كلّفه جمال باشا بأن يقود قوة المجاهدين "مليشيا دينية" في المنطقة بأسرها. كان سيئًا بما يكفي وهو خارجٌ على القانون، والآن علينا أن نخضع له كضابط. جاء راكبًا إلى قريتنا يوميًا، يأمر الجميع وينتقيني بسبب الحقد الواضح.

سرعان ما أصبح موقفي لا يطاق. كنتُ معروفًا بالطبع بأنني منظم اتحاد الشبان الذي ظل لفترة طويلة يقاوم فوزي، وبالتالي نظر إلى كقائد الأرواح الشابة، وعرفت أنه عاجلاً أم آجلاً سيحاول فوزي تنفيذ تهديده الذي يكرره كثيرًا بأن "يطلق النار عليّ مثل كلب". وكان من المرجح أن يحدث هذا. عندما زار السفير مورغنثو فلسطين، أقام في قريتنا وقدم لأسرتي الدليل على صداقته الصدوقة. كان لهذه الأشياء أهمية في الشرق، وسرعان ما اشتهرت بأن لديّ أصدقاء مؤثرين. مع ذلك، كانت هناك طرق أخرى للتخلص منّي. في إحدى الأمسيات عند غروب الشمس، وبينما أقود عبر وادٍ بالقرب من قريتنا، جفل حصاني بقوة أثناء مروره بمجموعة من الشجيرات، حثثتُه واستدرتُ عائدًا نحو الشجيرات لأرى رجلًا على فرس يندفع بسرعة ببندقية على سرجه. احتفظتُ بالحادثة لنفسي، لكنني صرتُ أكثر حذراً مبقيًا عينيّ مفتوحتين أينما ذهبت. بعد أسبوعين، وبعد ظهر أحد الأيام، بينما كنتُ متوجهًا إلى هيديرا- قرية يهودية أخرى- على بعد ساعتين ركوبًا، أطلقت على رصاصة من خلف الكثبان الرملية، أحدثت ثقبًا في طية صدر السترة.

تحدثتُ مطولًا مع أخي في تلك الليلة. لم يشك أبدًا في ضرورة مغادرتي للبلاد، بعكسي أنا الرافض فكرة التخلي عن شعبي خلال أزمته. كانت ليلة جميلة، لا يمكن إلا لفلسطين أن تمنحنا إياها، ليلة بيضاء هادئة يغمرها القمر. جاء هدير البحر الأبيض المتوسط من السكون وكأنه يذكرنا بأنً المساعدة والخلاص لا يمكن أن يأتيا إلا من البحر، البحر الذي كانت تبحر عليه عشرات من سفن الحلفاء الحربية ذهابًا وإيابًا. تجادلنا لساعات قبل أن أذعن لرأيه.



**الفصل العاشر**

**مغامرة متهورة**

كان قرار مغادرة البلاد أمراً جيداً للغاية، لكن تنفيذ الخطة بأمان أمر مختلف. هناك طريقان للخروج، أحدهما الطريق البريّ نحو القسطنطينية، والذي لا يمكن أخذه بعين الاعتبار. والآخر ركوب إحدى السفن الأمريكية، المفوضة بأمر من السفير مورغنثاو لمساعدة مواطني الدول المحايدة على مغادرة الإمبراطورية العثمانية. قامت هذه السفن بالفعل بأعمال إنقاذ رائعة لليهود الروس في فلسطين، والذين كان من المقرر لدى إعلان الحرب إرسالهم إلى بلدة أورفا في بلاد ما بين النهرين، ليشهدوا نفس مذابح وفظاعات الأرمن. تم منع ذلك من خلال احتجاجات السيد مورغنثاو النشطة، مما أدى إلى تجمع هؤلاء اليهود الروس معًا في شبكة صيد كبيرة واقتيادهم إلى يافا وسط معاناة لا توصف. قابلتهم هناك السفن الأمريكية التي ستنقلهم إلى مصر. تعرضوا حتى اللحظة التي وطأت أقدامهم السفن الحربية الصديقة للسرقة والاعتداءات الفظيعة من قبل البحارة في يافا. اللعنة الأبدية لليهوديّ التائه. بعد طردهم من روسيا، جاءوا للبحث عن مأوى في تركيا، ثم طردتهم تركيا بحجة أنهم موالون لروسيا. يرفع اليهودي عينيه إلى الجبال، ويبادر بالسؤال القديم الذي لا يزال بلا إجابة: "من أين ستأتي نجدتي؟".

ندمت الحكومة التركية في وقت لاحق على تساهلها في السماح لهؤلاء اليهود الروس بالهرب، وأمرت بعدم مغادرة غير المحايدين البلاد، وفي ظل ظروف معينة. لم أكن محايدًا، وأوراقي الأولية للجنسية الأمريكية كانت عديمة القيمة لتعزيز هروبي. مع ذلك، سمعتُ أنً السفينة الأمريكية تينيسي استدعيت إلى يافا. عقدتُ العزم على الصعود على متنها بطريقة أو بأخرى. وفي إحدى الأمسيات، ودعتُ شعبي بكل حزن مع حلول الظلام، وانطلقتُ إلى يافا. أسافر ليلًا فقط، متخذًا مسارات نائية لتجنب رجال الدرك. الآن وبعد إنتهاء حملة الجراد أصبح جواز سفري عديم الفائدة. تسللتُ إلى يافا بعد يومين أوان الفجر عبر الكثبان الرملية، وذهبتُ إلى منزل صديق يمكنني الوثوق به لمساعدتي بكل طريقة ممكنة. توسلتُ إليه أن يجد لي جواز سفر محايد. انطلق في البحث بينما جلستُ منتظرًا طوال اليوم في منزله، مستنفذًا بقلة الصبر والقلق. أخيرًا، عاد في المساء لكن بأخبار غير مبهجة. وجد جواز سفر بالفعل، لكن تقريره عن صرامة التفتيش في رصيف الميناء كان من شأنه توضيح أنً فرص عبوري بجواز سفر مزور كانت ضئيلة للغاية، لأنني كنتُ معروفًا في يافا. القبض علي في مهمة كهذه يعني موتي وعقاب الأصدقاء الذين ساعدوني.

من الواضح أنً هذه الخطة لم تكن مجدية. أرهقتُ عقلي طوال تلك الليلة للتوصل إلى حل. قررتُ أخيرًا أن أراهن بكل شيء على ما بدا أنه فرصتي الوحيدة. كان موعد مغادرة السفينة تينيسي في اليوم التالي في الصباح الباكر. أعطيتُ صديقي اسم ملّاح كان عليه جميل تجاهي وأقسم أن يكون صديقي مدى الحياة أو الموت. ترددتُ حتى في ظلّ هذه الظروف في الوثوق برجلٍ محمديّ، لكن بدا لي الخيار الوحيد المُتاح أمامي. جاء صديقي بالملاَّح، وأخبرتُه بخطتي، مناشدًا جرأته وشعوره بالشرف. أردتُه أن يأخذني عند منتصف الليل في قارب صيدهِ الخاص من جزء منعزل من الساحل وينتظر ظهور تينيسي، وعند وصولها، ووسط زحمة القوارب المليئة باللاجئين كان علي أن أقفز على متنها، بينما سيعود هو مع القوارب الأخرى. أراد صديقي المسكين الاعتراض، مشيرًا إلى المخاطر وما أسماه محقًا خطة حمقاء. مع ذلك، تمسكتُ بها، وأوضحتُ للملاح أنه سيحصل على أجر جيد. وافق أخيرًا ورتبنا مكانًا للاجتماع خلف الكثبان الرملية على الشاطئ.

وضعتُ بعض المتعلقات الشخصية في حقيبة صغيرة وطلبتُ من صديقي إعطاءها لأحد اللاجئين الذي كان من المقرر أن يبحر في تينيسي. على أن أستعيدها منه لدى وصولي مصر إن نجحت. الشيء الوحيد الذي أخذتُه معي هو الورقة التي أعلنت "نيتي في أن أصبح مواطنًا أمريكيًا"، وهي "الورقة التمهيدية". كنتُ مصمما على عدم مفارقة هذه الوثيقة التي لن أقول كيف احتفظتُ بها، لأنً الوسيلة التي استخدمتها ربما لا يزال يستخدمها الآخرون في إخفاء مثل هذه الأوراق، وقد يؤدي الكشف عن السرّ إلى مصيبة قد تحيق بهم. يكفي أن أقول إن الورقة كانت بحوزتي وأنه لن يؤدي أي بحث إلى الكشف عنها.

وصلتُ صباح اليوم التالي إلى المكان المحدد، وأعطيتُ الإشارة المتفق عليها، أنين ابن آوى، وبعد تكراره مرارًا، سمعتُ إجابة خافتة ومكتومة. كان ملاحي هناك، رغم بعض مخاوفي من أنه سيخونني، وأنني سأرى جنديًا أو شرطيًا يقفز من القارب الصغير، لكن لم يكن لمخاوفي أساس من الصحة، فالرجل كان مخلصًا.



جدفنا بهدوء. كان قاربنا مجرد ريشة صغيرة على الأمواج الهادرة. لكنني شعرتُ بالارتياح. لم تخيفني عناصر المكان، على العكس من ذلك، شعرتُ بالأمان والانتعاش في وسط البحر. حينما أشرق الفجر، خرجت عشرات القوارب الصغيرة من الميناء وتحلّقت في انتظار السفينة. كانت هذه فرصتنا، جثمت في قاع القارب، بحيث يبدو أنً ملاحي يصطاد في عرض البحر. استلقيتُ هناك لأكثر من ساعة وقلبي ينبض مثل طبل، ومع آمال صغيرة في نجاح مهمتي، لأسمع أخيرًا صافرة السفينة تقترب متبوعة بوابل من الصراخ المجنون والشتم من ملاحيّ المراكب. شعرتُ في حالة الارتباك تلك أنه من الآمن الجلوس. لم ينتبه لي أحد. انخرطوا جميعًا في سباق محموم للوصول إلى سلم تينيسي وصعوده. تدافعتُ مع البقية، وعندما طلب ضابط على ظهر السفينة جواز سفري، رفعت رأسي بثقة وطلبت منه أن يخبر النقيب ديكر أنً السيد آرونسون يرغب في رؤيته.

بعد عشر دقائق كنتُ في مقصورة القبطان. كشفتُ هناك قصتي، وانتهى بي الأمر بسؤاله عما إذا كانت "أوراقي التمهيدية" توفر لي الحماية في ظل هذه الظروف. بينما أتحدث كان بإمكاني رؤية الصراع الذي يدور بداخله. شرح بأقصى درجات اللطف أنً اصطحابي على متن سفينته بمثابة التنازل عن كلمة شرفه للحكومة التركية، وتعهده بأخذ مواطني الدول المحايدة فقط، وأنه لا يستطيع أن يعتبرني أميركياً على أساس أوراقي التمهيدية، وأنً أي تهرب من هذا القبيل قد يؤدي إلى تعقيدات خطيرة له ولحكومته. لم يكن لدي خيار سوى الانسحاب والعودة إلى يافا لمواجهة المحاكمة بسبب محاولة الهروب.

عندما وصلتُ سطح السفينة مرة أخرى، وجدتُها تعج باللاجئين. تعرف الكثير منهم عليّ وقدموا لتهنئتي على الهروب. لم يكن بإمكاني سوى هز رأسي. نزلت سلم تينيسي مثقلًا بمشاعر الموت. لا يهم الآن أي قارب ركبته. كان أي ملاح حريصًا بما يكفي ليأخذني مقابل بضعة سنتات. وبينما كنت جالسًا في القارب، مع كل ضربة من المجاديف تقربني من الشاطئ، شعرتُ بالعبودية المحتومة، وتورم قلبي بمرارة شديدة. كنتُ متعبًا تمامًا من كل الأخطار والمحاكمات التي مررتُ بها طوال الأشهر الماضية. وغرقتُ في الاكتئاب واليأس، وللغرابة، في حالة صفاء عظيم ، صفاء اليأس.

صادفتُ على الرصيف حسن بك قائد الشرطة، الذي كان يشرف على صعود اللاجئين. كنت أعرفه ويعرفني. بعد نصف ساعة كنتُ في مقر الشرطة قيد الفحص من قبل حسن بك. كنتُ يائسًا، وأجبتُ على أسئلته بتهور. فالمصاب بدوار البحر لن يبالي بتحطُّم السفينة. كان هذا هو جوهر حديثنا:

* "كيف صعدتُ السفينة؟"
* "في قارب مع بعض اللاجئين. أخفتني امرأة تحت تنانيرها".
* "إذن كنتَ تحاول الهروب، أليس كذلك؟"
* "لو كنتُ كذلك، لما عدت".
* "إذن ما الذي كنتَ تفعله على السفينة"
* "ذهبتُ للتحدث مع القبطان، وهو صديق لي. حياتي في خطر، فوزي بك يطاردني، وأردتُ لأصدقائي في أمريكا أن يعرفوا كيف يتم تحقيق العدالة في فلسطين"
* "من هم أصدقاؤك في أمريكا؟"
* "الرجال الذين يمكن أن يحطموك في دقيقة."
* "هل تعرف مع من تتحدث؟"

"نعم حسن بك. سئمتُ من الاضطهاد. أتمنى أن تشنقني بيديك كما شنقتَ الشاب المسيحيّ، وسيأخذ أصدقائي حياتك من أجلي".

أتساءل الآن كيف تجرأتُ على التحدث إليه بهذه الطريقة. لكن الخداع استمر. نظر إليّ حسن بك بفضول للحظة ثم ابتسم وقدم لي سيجارة، أكد لي أنه يعتقد أنني مواطن مخلص، وأعلن أنه شعر بألم شديد لأنني لم آت إليه للحصول على إذن لزيارة السفينة. افترقنا مع وفرة من الإطراءات الشرقية، وفي ذلك المساء عدتُ إلى زكرون جاكوب.



الفصل الحادي عشر

الهروب

أدى فشل محاولتي مغادرة البلاد إلى زيادة رغبتي في إجراء محاولة أخرى. دفعني خطر ما يحدث لتصالحي مع هجر أسرتي ورفاقي والبحث عن الأمان لنفسي. بينما كنتُ أرهق ذهني باحثًا عن خطة واعدة، وصلت رسالة من أختي في بيروت تحكي عن خبرين تسببا في هروبي الأخير. كانت الكلية الأمريكية ستغلق قريبًا في الصيف، وكان من المقرر أن تبحر السفينة يو اس اس تشيستر إلى الإسكندرية وعلى متنها لاجئين. الرحلة إلى بيروت تستغرق أربعة أيام من قريتنا والطرق غير آمنة. كان السماح لأختي بالعودة إلى المنزل بمفردها غير وارد، وكان من المستحيل على أيّ منا الحصول على إجازة للذهب إليها، كما لم نرغب في عودتها إلى المنزل في ظل عدم استقرار البلاد. بدأتُ أتساءل عما إذا كان من الممكن أن أصل بيروت، وأخذ أختي على متن السفينة تشيستر، والتي ربما كانت الفرصة الأخيرة للخروج مع اللاجئين. ستكون مهمة صعبة ولكنها قد تكون فرصتنا الوحيدة. اتخذتُ قراري بسرعة، وهو تنفيذ الخطة إن أمكن. لم أضيع أي وقت، كان علي أن أتصرف على الفور، لا أحد يستطيع معرفة متى ستبحر تشيستر.

دخلتُ مغامرتى الأخيرة بنذير شؤم، ولكني شعرتُ الآن أنه يجب أن أنجح. بالنسبة لنا يتحدث الحدس الشرقي بصوت مسموع للغاية ونحن مدربون منذ الصغر على الاستماع إليه. وبثقة النتيجة، ودعتُ عائلتي وأصدقائي الأعزاء للمرة الثانية. كانت ساعات الوداع مهيبة، لا تحتاج سوى لكلمات قليلة. ثم انزلقتُ مرة أخرى في الليل متخذًا دروبي السريّة صوب بيروت.

غادرتُ المنزل عند منتصف الليل، مرتديًا زيّ جندي مُعتليًا حمارًا. سافرت ليلاً فقط وأمضيتُ كل يوم مختبئًا في كهف أو واد ضيق حيث يمكنني النوم مع قدر من الأمن. بالنسبة للطعام، أحضرتُ معي الخبز والتين المجفف والشوكولاتة، أما الماء فكان دائمًا موجودًا في الينابيع الصغيرة والبرك. في هذه الليالي الصافية والدافئة، كنت أفكر في داؤود الهارب والملاحق من قبل أعدائه. إلى أي مدى يمكنني الآن فهم صراخه اليائس: "إلى متى تنساني يا رب؟ إلى الأبد؟ ... إلى متى يعلو عدوي عليّ؟".

سافرت خمس ليالٍ، وفي صباح أحد الأيام ظهرت بيروت الجميلة في البعيد، ووجدتُ نفسي في غابة الصنوبر التي تؤدي إلى المدينة. امتلأ الفجر المنعش برائحة الصنوبر العطرة وبكل روائح لبنان. كنتُ أقود حماري أمامي، واقتربتُ بجرأة من مجموعة الدرك الأولى، وحييتُ ضابط الصف بالطريقة العسكرية. أوقفني وسألني من أين أتيت وإلى أين أذهب. ابتسمتُ بلطف مجيبًا أنني مسؤول عن ضابط ألماني كان يمسح البلاد بضع ساعات إلى الجنوب وأنني ذاهب إلى بيروت للحصول على المؤن. ثم أشعلتُ لفافة وجلستُ للدردشة. بعد أن ناقشنا السياسة والحرب لبضع دقائق، قفزتُ صائحًا بضرورة استعجالي حتى لا أتأخر، وهكذا رحلت. كان كل شيء في غاية البساطة. وصلتُ بأمان إلى بيروت. وسرعان ما هجرت حماري بعد أن خدم غرضه، وهرعتُ إلى منزل أحد الأصدقاء، حيث استبدلتُ بَزتي العسكرية بزي أحد المدنيين.

كانت أختي أكثر شخص متفاجئ على وجه الأرض عندما رأتني أسير إلى غرفتها. ظنتني مجنونًا عندما أخبرتها أنني أريدها أن تذهب معي في تشيستر، كانت تعلم أنً مئات الأشخاص حاولوا عبثًا العثور على وسائل لمغادرة البلاد، وبدا لها أنه من المستحيل أن ننجح في التفوق على السلطات طالما نحن رعايا أتراك. حتى عندما شرحتُ خططي وصارت على استعداد الاعتراف بإمكانية النجاح، كانت لا تزال تشعر بالشكوك حول ما إذا كان من المناسب لها مغادرة البلاد وتترك أصدقاءها في خطر. أكدتُ لها أنً هربنا سيشعر أسرتنا بالارتياح لمعرفة أننا آمنون، ويمكن أن نعود متجددين وقويين بعد الحرب للمساعدة في إعادة بناء البلاد.

حصلتُ على موافقتها، لكن لا زلتُ أواجه صعوبة الطرق والوسائل. لدى تشيستر أوامر بأخذ مواطني الدول المحايدة فقط، لا بد من فحص جوازات السفر من قبل السلطات التركية ومن قبل القنصل العام الأمريكي، الذي يعطى الإذن النهائي لركوب السفينة. كيف لي أن أجتاز هذا الفحص المزدوج؟ بعد بحث طويل وشاق وبمساعدة العديد من الأصدقاء الجيدين، اكتشفتُ أخيرًا رجلاً كان على استعداد لبيع جوازات سفر زوجين شابين ينتميان إلى دولة محايدة. لا يمكنني الخوض في تفاصيل هذا الترتيب بالطبع. يكفي أن أقول إن أختي كانت ستسافر معي كزوجتي، وأنً علينا أن نتنكر حتى نُطابق الأوصاف الموجودة على جوازات السفر. عندما ذهبتُ إلى القنصلية العامة الأمريكية للحصول على التصريح، وجدتُ المبنى مكتظًا بأناس من جميع الدول، إسبانيا، واليونان، وهولندا، وسويسرا، جميعهم ينتظرون الأوراق الصغيرة الثمينة التي ينبغي أن تأخذهم على متن السفينة الأمريكية، جنة الحرية والأمان.

كان على تشيستر أن تأخذ كل هؤلاء الناس إلى الإسكندرية. من يملكون الإمكانيات سيدفعون خمسين سنتًا في اليوم مقابل طعامهم. من خلف نظارتي المظلمة تعرفتُ على العديد من الأشخاص الذين يتنكرون مثلي ويسعون للهروب. لم نعترف بالسر أبدًا خوفًا من الجواسيس الذين انتشروا في المكان.

بعد الحصول على تصريحي، ركضتُ نحو الطابق السفلي مباشرة إلى "قُنصلي"، المرشد الذي أخذتثه معي إلى السرايا، أو المبنى الحكومي. تلقى مرشدي إكرامية جيدة بالطبع، وساعدني بشكل كبير في تسريع الفحص الذي كان عليّ الخضوع له على أيدي المسؤولين الأتراك. سارت الأمور على ما يرام، وهرعتُ إلى أختي منتصرًا.

كان من المقرر أن تبحر السفينة تشيستر في غضون يومين، لكن بينما ننتظر جاءت أخبار مقلقة بأنً القنصل الأمريكي قد أُبلغ أنً الحكومة البريطانية رفضت السماح بإنزال اللاجئين في مصر وأنً رحيل تشيستر قد تم تأجيله إلى أجل غير مسمى. غرق قلبي، وهرعت إلى القنصلية الأمريكية للحصول على التفاصيل، علمتُ هناك أنه من المقرر أن تبحر السفينة دي موين في غضون ساعات قليلة إلى رودس حاملة لاجئين إيطاليين ويونانيين وأنه يمكنني الذهاب على متنها إن أردت. في غضون بضع دقائق تم تغيير تصريحي للرحلة على دي موين. سارعتُ نحو المنزل. جمعتُ وأختي على عجل الأشياء القليلة التي كان علينا أخذها معنا، وقفزنا في عربة متوجهين نحو الميناء.

لا يزال أمامنا اختبار أخير. أُخذت أختي إلى غرفة خاصة وفُتّشت بدقة، وكذلك أنا. لا أحد يستطيع مغادرة البلاد مع أكثر من خمسة وعشرين دولارًا نقدًا. تم تفتيش أمتعتنا بعناية. وبما أنه لا يمكننا أخذ أوراق أو كتب معنا، فقد **نظر المفتّش إلى الكتاب المقدس** لأختي بشكٍّ كبير لأنه يحتوي على خريطة كنعان القديمة. شرحتُ أنَّ هذا ضروري لتوجيه صلواتنا، وأنه بدونه لا يمكننا تحديد الاتجاه الذي ندير إليه وجوهنا عند الصلاة. بدا هذا معقولاً للمفتشين المسلمين وأنقذنا الكتاب المقدس، الكتاب الوحيد الذي نمتلكه الآن كتذكار من المنزل. فُحصت جوازات سفرنا مرة أخرى وطُرحت علينا عدة أسئلة. كانت أختي شجاعة، رابطة الجأش، هادئة وغير مبالية، في النهاية أخذنا التوقيع النهائي وقفزنا إلى القارب الصغير الذي سيأخذنا إلى السفينة.

في هذه اللحظة اقترب رجل، تاجر بضائع جافة كانت أختي قد اشترت منه بعض المشتريات قبل بضعة أشهر. بدا أنه تعرف عليها وسألها بالألمانية إن كانت الآنسة آرونسون. شعرتُ بدمي يترك وجهي، ونظرتُ مباشرة في عينيه وهمستُ: ستصبح ميتًا إن نطقت بكلمة واحدة: ساعدني يا رب". لا بد أنه شعر بما قصدتُ قوله بالضبط ، لأنه ذهب مغمغمًا بشيء غير مفهوم.

تحرك أخيرًا القارب، وبعد خمس دقائق كنا نصعد على دي موين. غطت حشود من اللاجئين طوابق السفينة، وبان على وجوههم التوتر والقلق. بدا وجودهم هناك جيدًا لدرجة يصعب تصديقها، وكان الجميع ينتظرون اللحظة التي يجب أن تسحب بها السفينة المرساة. ظهر بحار فلبيني يتحدث الإيطالية، أخبرتُه أنني أريد الاختباء في مكان ما حتى انطلاق السفينة. شعرتُ أننا لم نكن آمنين تمامًا. اكتشفتُ بعد قليل أنَّ مخاوفي كانت مبررة، عندما رأيتُ من مخبأنا صاحب المتجر يقترب في قارب صغير مع ضابط تركي. نظروا إلى جميع اللاجئين الموجودين على ظهر السفينة، وبحثوا عّنا دون جدوى. بعد نصف ساعة أخرى من التوتر المقلق، بدأت المحركات تطقطق، ودارت المراوح، وأصبحنا بأمان.



مضى النهار، ولاح شفقٌ جميل بهتت معه ملامح لبنان وبيوت بيروت. أحاط البحر الأبيض المتوسط بنا هادئًا ومسالمًا، وأعطى البحارة الأمريكيين، الأصحاء والأقوياء شعورًا بالثقة. عندما غادرت السفينة الميناء، انطلقت صرخة وداع كبيرة من اللاجئين الموجودين على متنها، بكاءٌ مختلطٌ بالراحة كوننا أحرارَا والقلق من ترك الوالدين والأصدقاء، والخوف والأمل في المستقبل. بعد ذلك بقليل اصطف البحارة مع أسلحتهم لتحية العلم الأمريكي عندما تم إنزاله ليلاً. بدافع من غريزة الحب والاحترام القوية، قفز جميع اللاجئين على أقدامهم، الرجال عراة الرأس والنساء بأيادي مطوية، وفي تلك اللحظة فهمت أنني لم أع أبدًا المعنى الحقيقي المقدس للعلم. بالنسبة لكل هؤلاء الأشخاص الذين وقفوا في رهبة حول قطعة القماش تلك التي تحمل النجوم والشرائط، كانت أمريكا تجسيدًا للحبّ العالمي، للحرية والخلاص.

أمضينا الليلة السورية الرائعة، أول ليلة لنا على السفينة، في الأغاني والأناشيد والمحادثات، كنا وافري الحماسة فلم ننم. اكتشاف الأصدقاء، وتبادل حكايا المحن، وقصص المشقة والظلم والقمع، التي انتهت جميعها بالتهاني المتبادلة على الهرب من براثن الأتراك.

---

النهاية